الدرر السنية في السيرة النبوية:

مقدمة في سيرة رسول الله محمد ﷺ:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد معاشر المؤمنين: يقول الله ﷻ في أول سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[يوسف:٣]، ثم قال ﷻ في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١].

قال الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب في أول اختصاره لسيرة رسول الله محمد ﷺ: "اعلم رحمك الله، أن أفرض ما فرض الله عليك معرفة دينك، الذي معرفته والعمل به، سبب لدخول الجنة، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار، ومن أوضح ما يكون لذوي الفهم: قصص الأولين والآخرين، قصص من أطاع الله وما فعل بهم، وقصص من عصاه وما فعل بهم، فمن لم يفهم ذلك و لم ينتفع به، فلا حيلة فيه، كما قال ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[ق:٣٦]، وقال بعض السلف: "القصص جنود الله ﷻ" يعني: أن المعاند لا يقدر يردها، فاحرص على معرفة ما جرى لأبيك آدم، وعدوك إبليس، وما جرى لنوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وإبراهيم وقومه، ولوط وقومه، وموسى وقومه، وعيسى وقومه، ومحمد ﷺ وقومه، واعرف ما قصه أهل العلم من أخبار النبي محمد ﷺ وقومه، وما جرى له معهم في مكة، وما جرى له في المدينة، واعرف ما قص العلماء عن أصحابه وأحوالهم وأعمالهم، لعلك أن تعرف الإسلام والكفر، فإن الإسلام اليوم غريب، وأكثر الناس لا يميز بينه وبين الكفر، وذلك هو الهلاك الذي لا يُرجى معه فلاح، وكذلك كان رسول الله ﷺ، يقص على أصحابه قصص من قبلهم ليعتبروا

بذلك، وكذلك أهل العلم في نقلهم سيرة رسول الله ﷺ، وما جرى له مع قومه، وما قال لهم، وما قيل له، وكذلك نقلهم سيرة الصحابة، وما جرى لهم مع الكفار والمنافقين، وذكرهم أحوال العلماء بعدهم، كل ذلك لأجل معرفة الخير والشر" انتهى كلامه.

الوقفة الأولى: (حال العرب قبل البعثة):

معاشر المؤمنين: يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[آل عمران:٨١-٨٢] قال علي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم: "ما بعث الله نبيًا من الأنبياء، إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بُعث محمد ﷺ وهو حي، ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه"، قال الحافظ ابن كثير: "وهذا تنويه وتنبيه على شرفه وعظمته في سائر الملل، وعلى ألسنة الأنبياء، وإعلام لهم ومنهم برسالته في آخر الزمان، وأنه أكرم المرسلين، وخاتم النبيين، وقد أوضح أمره، وكشف خبره، وبين سره، وجلى مجده ومولده وبلده: إبراهيمُ الخليل في قوله عليه السلام حين فرغ من بناء البيت: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة:١٢٩]، فكان أول بيان أمره على الجلية والوضوح بين أهل الأرض، على لسان إبراهيم الخليل أكرم الأنبياء على الله بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهما وعلى سائر الأنبياء" انتهى كلامه.

وقد روى ابن إسحاق في سيرته من طريق خالد بن مَعدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك؟ فقال ﷺ: (دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت كأنه خرج منها نور أضاءت له بصرى من أرض الشام) قال الحافظ ابن كثير: "إسناده جيد". وعن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال: يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ فقال ﷺ: (دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي نورًا أضاءت منه قصور الشام) رواه الإمام أحمد وغيره.

دعوة أبي إبراهيم، نعم، إبراهيم عليه السلام، إمام الحنفاء، الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وأثنى عليه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النحل:١٢٠-١٢١]، وأمر ﷻ باتباع ملته الحنيفية فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٣]،

وأمر الله نبيه وخليله محمدا ﷺ أن يبين نعمته عليه بذلك فقال: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام:١٦١].

وأما دعوة إبراهيم عليه السلام: فهي المذكورة في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة:١٢٧–١٢٩]، فاستجاب الله ﷻ دعوته، فبعث من نسله خاتم النبيين وسيد ولد آدم، محمدا ﷺ، الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، صدق ربنا ﷻ حين قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام:١٢٤].

لقد أكرم الله خليله إبراهيم عليه السلام، فجعل في ذريته النبوة والكتاب، وجعل له لسان صدق في الآخرين، وذلك أن الله ابتلاه فصَدَق وامتثل أمر ربه، ومن ذلك: استجابته لأمر ربه في شأن ابنه إسماعيل الذي رُزقه على كبر سنه، فاحتمله مع أمه هاجر، فأسكنهما بوادي مكة بين جبال فاران، حيث لا أنيس ولا أحد هناك، وكان إسماعيل رضيعا، ثم ذهب وتركهما هناك عن أمر الله له بذلك، ودعا ربه بتلك الدعوات المباركات فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم:٣٥–٣٧]، وكان إبراهيم عليه السلام قد ترك هاجر هناك، وليس عندها سوى جراب فيه تمر، ووكاء فيه ماء، فلما نفد ذلك، أنبع الله لهاجر زمزم، التي هي طعام طعم وشفاء سقم، ثم نزلت جرهم وهم طائفة من العرب الأقدمين عند هاجر بمكة، على أن ليس لهم من الماء شيء إلا ما يشربون منه وينتفعون، فاستأنست هاجر بهم، وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرهم في كل حين، فلما بلغ إسماعيل مع أبيه السعي، قال له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الصافات:١٠٢]، فاستجابا لأمر الله وأطاعا، فعند ذلك فدى الله الذبيح إسماعيل كما قال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[الصافات:١٠٧].

ثم بنى الخليل إبراهيم البيت وأعانه الابن البار إسماعيل كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٢٧]، وأوحى الله إلى إبراهيم، أن ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[الحج:٢٧]، فأذن في الناس، فجاؤوا من كل فج عميق، ملبين طائعين مخبتين لرب العالمين، فعُمرت تلك العرصات بتوحيد الله، وانتشر التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم وابنه إسماعيل في جزيرة العرب.

وبعد مدة من الزمن، استولت خزاعة على ولاية البيت الحرام، وفي زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحي الخزاعي، فإنه أول من دعاهم إلى ذلك، وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع، لشرفه فيهم، وكرمه عليهم، ولفشو الجهل ورفع العلم، وكان عمرو بن لحي قد رأى عبادة الأصنام بالشام فأعجبه ذلك، فجلب منها صنما يقال له هُبل، فنصبه بمكة، ودعا العرب إلى تعظيمه فأطاعوه، حتى فشت فيهم عبادة الأصنام، وقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العُطاردي أنه قال: "كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجرا، جمعنا حَثْية من التراب، وجئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا بها". قال ابن إسحاق غفر الله له: "واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام يتمسكون بها، من تعظيم البيت والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف على عرفات والمزدلفة، وهدي البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم ما ليس منه، فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، فيوحدونه بالتلبية، ثم يُدخلون معه أصنامهم، ويجعلون ملكها بيده، يقول الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦] أي: ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكا من خلقي" انتهى كلامه.

ولقد حدَّث الرسول الخاتم محمد ﷺ بعقوبة هذا المغير للملة الحنيفية، الداعي إلى الضلالة فقال: (رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قُصْبَه -أي: أمعاءه- في النار، وكان أول من سيب السوائب) خرجه الإمام البخاري، والسوائب: هي التي كانوا يسيبونها لآلهتهم من بهيمة الأنعام، لا يُحمل عليها شيء، ولقد أنكر الله عليهم هذه البدع والشركيات وتغيير دين إبراهيم فقال ﷻ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ

ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[المائدة:١٠٣]، وقال ربنا ﷻ في محكم التنزيل: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾[النحل:١١٦]، وقال ربنا ﷻ منكرا عبادتهم الأولياء والصالحين: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[يونس:١٨] فشابهوا من كان قبلهم من الأمم المشركين، وشابهوا قوم نوح، وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام، وهم الذين عادوا نبي الله نوحا وقالوا: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾[نوح:٢٣–٢٤] قال ابن عباس ﷺ: "كان هؤلاء قوما صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم" خرجه الإمام البخاري. قال ابن إسحاق غفر الله له: "ثم صارت هذه الأصنام في العرب، بعد تبديلهم دين إسماعيل، واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفرًا تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على بيته، قال: فلما بعث الله محمد ﷺ بالتوحيد، قالت قريش: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[ص:٥]".

ولقد ذكر الله في كتابه بعض آلهتهم التي يعبدونها، فقال ربنا ﷻ في سورة النجم: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾[النجم:١٩–٢٠]، وكان اللات صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحُكي عن ابن عباس وغيره أن اللات: كان رجلا يلُت السويق للحجيج في الجاهلية، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه، وأما العزى: فكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش تعظمها، كما قال سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: (قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم)، وأما مناة: فكانت بالـمُشَلَّل عند قُديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها في الجاهلية، ويهلون منها بالحج إلى الكعبة، وكانوا مع ذلك يعبدون نجما يقال له الشعرى، وهو المذكور في قول ربنا ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾[النجم:٤٩].

لقد كان الناس في الجاهلية في شقاء وشر، وكانوا على شفى حفرة من النار، كما قال حذيفة رضي الله عنه: "يا رسول الله، كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير" خرجه الإمام البخاري، وكما قال المغيرة رضي الله عنه لعامل كسرى –وقد كان في البعث الذي

بعثه عمر-، قال رضي الله عنه: "نحن أناس من العرب، كنا في شقاء شديد، وبلاء شديد، نمص الجلد والنوى من الجوع، ونعبد الشجر والحجر" خرجه البخاري.

وبلغ من شدة الجاهلية وقسوة قلوب أهلها: أن الرجل كان يدفن ابنته خوف العار أو الفقر، كما قال ربنا ﷻ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[النحل:٥٨-٥٩]، وقال ربنا ﷻ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾[التكوير:٨-٩]، وأنكر الله ﷻ قتلهم الأولاد فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء:٣١]. ذكر الإمام البخاري في صحيحه: "أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يحيي الموءودة، ويقول للرجل: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها".

وكان فيهم مع ذلك من يعبد الجن، فإذا نزلوا منزلا قالوا: نعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهاء قومه، كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[الجن:٦]، وقال ربنا ﷻ: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾[الأنعام:١٠٠].

وكانوا في الجاهلية على سفهٍ وتغيير وابتداع في دين الله ﷻ، فقد كانوا يطوفون ببيت الله الحرام عراة، حتى أبطل ذلك رسول الله محمد ﷺ قبل حجة الوداع، فأذن أبو بكر في الحجة التي أمَّره عليها رسول الله ﷺ: "ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان" خرجه الإمام البخاري. فاللهم لك الحمد أولا وآخرا وظاهرا وباطنا.

معاشر المؤمنين، من الأمور التي كانت في الجاهلية وابتدعها أهلها: أن قريشا كانت تقف يوم عرفة بالمزدلفة، وكانوا يقولون: نحن أهل الحرم فليس لنا أن نخرج منه، ويسمون أنفسهم الحُمُس، ولهذا تعجب جبير بن مطعم حين أضل بعيرا في الجاهلية، فذهب يطلبه وذلك يوم عرفة، فرأى رسول الله ﷺ واقفا بعرفة مع الناس، فقال جبير: "هذا والله من الحُمُس، فما شأنه ههنا" خرجاه في الصحيحين. وهذا من توفيق الله لنبيه محمد ﷺ، وأنكر الله ﷻ فعلهم هذا فقال: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾[البقرة:١٩٩].

وكان لهم في الجاهلية أشجار يتبركون بها كذات أنواط، فيعكفون عندها ويعلقون أسلحتهم بها رجاء البركة، وإذا مطروا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وكانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، ويقولون: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾[ق:٣]، لما قال

النجاشي للصحابة المهاجرين إلى الحبشة: "ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، و لم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ فعند ذلك تكلم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده" الحديث رواه الإمام أحمد.

ولقد أدرك هذا الضلال بعض الناس قبل البعثة، ففي صحيح مسلم عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه أنه قال: "كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، ثم ذكر رحلته إلى رسول الله ﷺ بمكة لما سمع خبره، حتى أسلم رضي الله عنه وأرضاه".

وكانوا في الجاهلية يذبحون للأصنام والأنصاب ويذبحون على غير اسم الله ﷻ، ثبت عند البخاري أن زيد بن عمرو بن نفيل -وهو من الباحثين عن الدين الحق في الجاهلية-، كان هذا الرجل يقول لقريش: "إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه، وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله ﷻ، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله، يقوله إنكارا وإعظاما"، وكان زيد هذا ينفي أن يكون أحد من قريش على دين إبراهيم ويقول: "يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري" خرجه الإمام البخاري. هذا حال العرب المشركين.

وأما أهل الكتاب فقد ضلوا أيضا عن سواء السبيل، وحرَّفوا كتاب الله، وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا، يقول الله ﷻ مبينا حالهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[التوبة:٣٠]، وأخبر ﷻ عنهم أنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾[التوبة:٣١]، وفشا فيهم الغلو والقول على الله بلا علم، كما قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ﴾[النساء:١٧١]، واختلفت النصارى في المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فطائفة زعمت أنه ابن الله كما في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾[التوبة:٣٠]، وطائفة أخرى زعمت أنه رب العالمين، قال الله ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ

ﵟٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚﵞ[المائدة:١٧]، وثالثة زعمت أنه ثالث ثلاثة، كما قال ﷻ: ﵟلَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖﵞ[المائدة:٧٣].

ويستفاد مما تقدم أمور:

منها: بيان فضل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في بناء البيت والدعوة إلى توحيد رب العالمين.

ومنها: استجابة الله لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام، فبعث من نسله محمدا ﷺ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب.

ومنها: الحذر من الشيطان ودعاة الضلالة كعمرو بن لحي، لأنهم يصدون عن التوحيد ويزينون الشرك بأنواعه.

ومنها: بيان ضلال الأمم قبل مبعثه ﷺ، فظهر الشرك وخفيت معالم التوحيد، وفشا الظلم والظلام.

ومنها: حاجة الناس إلى الرسالة، ولهذا كان هناك من ينتظر بَعثة النبي الخاتم، خاصة أن الرسل قد بشرت به كما قال ﷻ: ﵟٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِﵞ[الأعراف:١٥٧]، وقال الله ﷻ: ﵟوَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖﵞ[الصف:٦].

ومنها: بيان شرف النبي محمد ﷺ، وفضله على أمته، وأن الله بعثه رحمة للعالمين، فأنقذهم الله به من الضلالة والعمى، فلهذا كان ﷺ يذكرهم بذلك، فقد قال للأنصار لما قسم غنائم غزوة حنين: (ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي)، يقول الله ﷻ: ﵟيَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞﵞ[المائدة:١٥].

ومنها: خطر الابتداع في الدين، فإن البدع بريد الكفر، وقد هدم النبي ﷺ أمور الجاهلية وبدعها في الحج وغيره.

ومنها: بيان فضل دين الإسلام الذي أنعم الله علينا به، ومن الأدلة على ذلك، النظر في حال العرب وغيرهم قبل بعثته ﷺ، وقد تقدم بحمد الله شيء من ذلك، ثم كيف أن الله ﷻ هداهم إلى أحسن السبل، وأكملِ الهدي، فصاروا دعاة إلى الخير، بل صاروا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، ﵟذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚﵞ[الأنعام:٨٨].

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

الوقفة الثانية: (بيان شرفه ﷺ ومولده وما جرى قبل ذلك من الأمور العظام):

معاشر المؤمنين، هذه ثاني وقفة في سيرة رسول الله محمد ﷺ، في بيان شرفه ﷺ ومولده، وما جرى قبل ذلك من الأمور العظام، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[الصف:٦] نعم، إنه النبي الذي بشر به في التوراة والإنجيل، اسمه أحمد، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

معاشر المؤمنين، يقول ربنا ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨] ويقول ﷻ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[الحج:٧٥]، فالله ﷻ يختص بعض عباده ويختارهم ليكونوا ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]، وقد قال ربنا ﷻ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام:١٢٤].

فهذا اصطفاء النبوة والرسالة، وقد تحقق لنبينا محمد ﷺ فهو خاتم الأنبياء، وكذلك اصطفاء النسب ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم) خرجه الإمام مسلم، وثالثها الاصطفاء في الزمن لقوله ﷺ: (بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرن، حتى كنت في القرن الذي كنت فيه) خرجه الإمام البخاري، وكانت قريشٌ قبل إسلامها، تقر بشرف نسبه مع عداوتها له، ففي حديث أبي سفيان رضي الله عنه حين سأله هرقل عظيم الروم، عن رسول الله ﷺ قال: (كيف نسبه فيكم؟ فقال أبو سفيان –وذلك قبل أن يسلم– هو فينا ذو نسب، فقال هرقل: فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها) خرجه الإمام البخاري، ومعنى قوله: في أنساب قومها، أي: في أكرمها أحسابا وأكثرها قبيلة، يقول أبو جعفر الباقر، في قول ربنا ﷻ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾[التوبة:١٢٨] قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، قال: وقال رسول الله ﷺ: (إني خرجت من نكاح و لم أخرج من سفاح) رواه عبد الرزاق وقال الإمام ابن كثير: هذا مرسل جيد، وللحديث طرق وحسنه الألباني.

فهو ﷺ سيد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة، أبو القاسم وأبو إبراهيم، محمد وأحمد، والماحي الذي يمحى به الكفر، والعاقب الذي ليس بعده نبي، والحاشر الذي يحشر

الناس على قدميه، والمقفي وهو الذي قفى من قبله من الرسل، فكان خاتمهم وآخرهم، وهو ﷺ نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة وخاتم النبيين، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ثبت عن نبينا ﷺ أنه قال: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر) رواه مسلم وابن حبان، نبينا، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشمِ بن عبدِ مناف، ينتهي نسبه إلى عدنان، قال الإمام ابن القيم غفر الله له: "ولا خلاف بينهم، أن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وأبوه عبد الله، كان أصغر ولد أبيه عبد المطلب، وهو الذبيح الثاني، المفدي بمائة من الإبل، كما قال الإمام ابن كثير، وأما جده عبد المطلب فاسمه شيبة، يقال: لشيبة كانت في رأسه، ويقال له شيبة الحمد، لجوده وكرمه، وغلب عليه اسم عبد المطلب، وكان قد ساد في قريش سيادة عظيمة، وذهب بشرفهم ورياستهم، فكان جماع أمرهم إليه، وكانت إليه السقاية والرفادة بعد عمه المطلب، وهو الذي جدد حفر زمزم، بعد ما كانت مطمومة من عهد جرهم، وقد قال أبو طالب في مدح رسول الله ﷺ:

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخرٍ***فعبد منافٍ سرها وصميمها
فإن حُصلت أشراف عبد منافها***ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإن محمدا***هو المصطفى من سرها وكريمُها.

ولقد تعددت مآثر عشيرة النبي محمد ﷺ في مكة، فقصي أحد أجداده، وهو الذي استحدث دار الندوة، التي يجتمع فيها الملأ من قريش للتشاور في أمورهم، كما أنه قسّم الرفادة والسقاية والحج واللواء بين عشائر قريش، وحافظت عشيرته على مكانتها زمن جده عبد المطلب، الذي اشتهر بحفر زمزم، وكان قد درس رسمها بعد طمّ جرهم إلى زمانه، وقد روي في ذلك قصة عجيبة، أخرجها ابن إسحاق بسند صحيح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك أنه قال: "إن عبد المطلب قال: إني لنائم في الحجر، إذ أتاني آت فقال: احفر طيبة، قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برة، قلت: و ما برة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى موضعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة –أي الغالية النفيسة التي يُضن بمثلها أي يُبخل–، قال: وما مضنونة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر زمزم، قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبدا ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم –أي: الذي في ساقيه بياض–

عند قرية النمل، قال: فلما بُين شأنها، ودُل على موضعها، وعرف أنه قد صُدق، عدا بمعوله ومعه ابنه الحارث، وليس له يومئذ ولد غيره فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب طي بئر زمزم كبر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقا فأشركنا معك فيها، قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خُصصت به دونكم، وأعطيته من بينكم، قالوا: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم، قال: نعم، وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا والأرض إذّاك مفاوز، حتى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم وقالوا: إنا بمفازة، وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فعند ذلك، حفر عبد المطلب وأقاربه لأنفسهم قبورا، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت، لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا، إنه والله لعجز، فعسى أن يرزقنا الله ماء ببعض البلاد، ارتحلوا، قال: فارتحلوا، حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش، وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال، فقال: هلموا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاؤوا فشربوا واستقوا كلهم، ثم قالوا لعبد المطلب: قد والله قضي لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبدا، إن الذي سقاك الماء بهذه الفلاة، لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدا، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم"، فقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ كما في حديث إسلام أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: (إنها لطعام طُعم وشفاء سقم)، وروى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ماء زمزم لما شرب له) رواه ابن ماجه وصححه العلامة الألباني. وبعد ظهور زمزم على يد عبد المطلب، انصرف الناس إليها وتركوا ما سواها من آبار مكة، لمكانها من المسجد الحرام، ولفضلها على ما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم، وافتخرت بها عبد مناف على قريش كلها بل وعلى سائر العرب، وقد كانت السقاية إلى عبد المطلب أيام حياته، ثم صارت إلى ابنه أبي طالب مدة، ثم إنه افتقر في بعض السنين، فاستدان من أخيه العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، ولم يقدر على الوفاء، فتنازل له عن السقاية مقابل

ذلك الدين، ولما فتح النبي ﷺ مكة، أقر السقاية بيد عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق غفر الله له: "وكان عبد المطلب فيما يزعمون، نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم، لئن ولد له عَشَرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة، وقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "كان عبد المطلب بن هاشم، نذر إن توافى له عشرة رهط أن ينحر أحدهم، فلما توافى له عشرة، أقرع بينهم أَيَّهم ينحر، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحب الناس إلى عبد المطلب، فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل" رواه الإمام ابن جرير، يقول الحافظ ابن كثير: "فسلمه الله تعالى، لما كان قُدر في الأزل من ظهور النبي الأمي ﷺ خاتم الرسل وسيد ولد آدم من صلبه، ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد ابنه عبد الله، حتى أتى به وهب بن عبد مناف، سيدَ بني زهرة نسبا وشرفا، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب، وهي يومئذ سيدة نساء قومها، فدخل بها، ثم حملت برسول الله ﷺ، قال الإمام ابن كثير: "فجعله الله في أشرف عنصر، وأكرم محتد، وأطيب أصل كما قال عز وجل: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام:١٢٤].

ورأت آمنة لما حملت به صلوات الله وسلامه عليه رؤيا، رأت كأنه خرج منها نور أضاءت له بصرى من أرض الشام، وكان حمله ﷺ خفيفا على أمه لا كما تحمل النساء، وتوفي أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمه، هذا ما جزم به ابن إسحاق، ورجحه الواقدي وابن سعد، وصححه الذهبي، قال ابن كثير: "إنه المشهور، وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه، ولله عز وجل في ذلك حكم منها:

أن يُعلم، أن العزيز من أعزه الله وأيّده، وأن القوة ليست من الآباء والأمهات، ولا من المال، بل من الله الواحد الديان، ولقد ذكّره ربنا جل وعلى بذلك فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[الضحى:٦]، قال بعضهم:

أخذ الإله أبا الرسول ولم يزل***برسوله الفرد اليتيم رحيمًا
نفسي الفداء لمفرد في يتمه***والدر أحسنُ ما يكونُ يتيمًا.

وأما مولد رسول الله ﷺ، فقد ولد نبينا ﷺ يوم الإثنين، لما روى مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن أعرابيا قال: يا رسول الله، ما تقول في صوم يوم الإثنين؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (ذاك يوم ولدت فيه، وأنزل علي فيه) وأما تاريخ يوم الولادة، فقد اختلف

فيه على أقوال، ولم يرد شيء منها بإسناد، إلا ما رواه مالك وغيره بالسند الصحيح عن محمد بن جبير بن مطعم، أنه ولد في اليوم الثامن من ربيعٍ الأول، قاله العلامة الألباني، وقال الحافظ ابن حجر: إنه مقتضى أكثر الأخبار، يعني: أنه ولد ﷺ يوم الثامن، والجمهور على أن ذلك في شهر ربيعٍ الأول، يقول إبراهيم بن المنذر الحِزامي شيخُ الإمام البخاري: " والذي لا يشك فيه أحد من علمائنا، أنه ﷺ ولد عام الفيل، وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل"، وحكى خليفة بن خياط وابن القيم، إجماع العلماء على أنه ولد عام الفيل، لما قدم أبرهة وجيشه لهدم الكعبة، ليصرف الناس إلى بيت بناه باليمن، يقال له القُلَّيس، فلم تقدر العرب على رده، فلما قرب من حرم الله، حبس الله الفيل الذي معه عن مكة، وأرسل عليه جندا من عنده وما يعلم جنود ربك إلا هو، وأهلكه الله ومن معه وجعلهم عبرة للعالمين، وكان ذلك تقدمة لمبعث رسول الله محمدٍ ﷺ، وكان عبد المطلب –جدُّ رسول الله ﷺ– قد قال لأبرهة: "إن للبيت ربا سيحميه".

وأما صفة مولده الشريف عليه الصلاة والسلام، فإن جده عبد المطلب لما ذبح تلك الإبل عن ولده عبد الله حين كان نذر ذبحه، فسلمه الله تعالى، لما كان قُدر في الأزل، من ظهور النبي الأمي ﷺ، خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم من صلبه، فذهب عبد المطلب بابنه عبد الله، فزوجه أشرف عقيرة في قريش، آمنة بنت وهب، فحين دخل بها وأفضى إليها، حملت برسول الله ﷺ من نكاح لا سفاح، ولم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، فرحم الله القائل:

من عهد آدم لم يزل تُحمى لهُ***في نسبها الأصلاب والأرحامُ
حتى تنقل في نكاح طاهرٍ***ما ضم مجتمعين فيه حرامُ
فبدى كبدر التم ليلة وضعهِ***ما شانَ مطلَعه المنيرَ قتامُ.

معاشر المؤمنين، إن فيما تقدم من سيرته ﷺ فوائد:

منها: بيان شرف قريش لكونه ﷺ منهم، وقد روت أم هانئ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (فضل الله قريشًا بسبع خصال لم يعطها أحدا قبلهم، ولا يعطيها أحدا بعدهم، فضل الله قريشا بأني منهم، وأن النبوة فيهم، وأن الحجابة فيهم، وأن السقاية فيهم، ونصرهم على الفيل، وعبدوا الله عشر سنين لا يعبده غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم تنزل في أحد من غيرهم) رواه الطبراني وحسن الحافظ العراقي إسناده.

وقد قال بعضهم في نسبه ﷺ وشرف قومه:

من أعرب العرب إلا أن نسبته***إلى قريش حماة البيت والحرمِ

لا عيب فيهم سوى ألا ترى لهم***ضيفا يجوع ولا جارا بمهتضمِ

قوم إذا قيل من؟ قالوا: نبيكم***منا، فهل هذه تُلْفَى لغيرهمُ

ومن فوائدها: أن حكمة الله اقتضت أن يكون نبيه الخاتم ﷺ أشرف الناس نسبا من قريش، ليكون أدعى لقبول العرب لكونهم يجلون هذا الأمر، ولئلا يقال: إنه أراد بذلك أن يحصل له جاه ونسب.

ومن فوائدها: الآية العجيبة في حفر جده عبد المطلب لبئر زمزم، فصار شرف سقايتها له ولذريته، وكذلك إنجاء لعبدالله والده من الذبح، ليتم ما قدره الله من خروج النبي الخاتم من صلبه.

ومنها: بيان حفظ الله ونصره لنبيه محمد ﷺ في صغره حال اليتم وفي كبره، كما قال ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾[الضحى:٦-٨]، فأتم له النعمة، وجعله سيد ولد آدم، ونصره على من عاداه، فكان نصره من عند الله ﷻ، لا بأب وعم ومال وعشيرة، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[التوبة:٤٠].

ومن فوائدها: بيان ما قدمه الله من الأمور العظام قبل مولده ﷺ، ومنها حماية حرمه، ونصر أهله على أبرهة وجيشه، قال الشيخ عبدالله بن الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب: "كانت وقعة الفيل تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته، وإلا فأهل الفيل نصارى أهل كتاب، دينهم خير من دين أهل مكة، لأنهم عباد أوثان، فنصرهم الله نصرا لا صنع للبشر فيه، تقدمة للنبي الذي خرج من مكة، وتعظيما للبلد الحرام".

ومن فوائدها: ما في قوله ﷺ: (ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام -أو بصرى- من أرض الشام)، نقل الشيخ عبدالله بن الإمام المجدد عن صاحب اللطائف قوله: "وخروج هذا النور عند وضعه: إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشرك، كما قال ﷻ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[المائدة:١٥-١٦]، وأما إضاءة بصرى بالنور الذي خرج منه، فهو إشارة إلى ما خُصَّ الشام من نور نبوته، فإنها دار ملكه، كما ذكر كعب: "إن في الكتب السالفة، محمد رسول الله، مولده بمكة، ومهَاجَره

يثرب، وملكه بالشام"، ولهذا أُسري به إلى الشام إلى بيت المقدس، كما هاجر إبراهيم عليه السلام إلى الشام، وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام، وهي أرض الـمَحشر والـمَنشر" انتهى كلام ابن الإمام المجدد غفر الله لهما.

ومنها: الحذر من مخالفة هدي رسول الله محمد ﷺ فيما يتعلق بمولده، وذلك أنه لم يثبت عنه ولا عن أصحابه والقرون المفضلة، الاحتفال بهذا اليوم.

وكل خير في اتباع من سلف***وكل شر في ابتداع من خلف.

ولهذا قال العلامة أبو حفص تاج الدين الفاكهاني عن هذا الاحتفال: "لا أعلم لهذا المولد أصلا في كتاب ولا سنة، ولا يُنقل عمله عن أحد من علماء الأمة، الذين هم القدوة في الدين، المتمسكون بآثار المتقدمين، بل هو بدعة أحدثها البطالون، وشهوة نفس اغتنى بها الأكالون" انتهى كلامه.

ومن البدع المنكرة في هذا الاحتفال: قيام الحاضرين عند ذكر مولده ﷺ، زاعمين أنه يحضرهم في تلك الحالة، وهذا كذب على رسول الله ﷺ.

ومن بدع المولد: قراءة القصائد المشتملة على المنكرات، كقصيدة البردة للبوصيري، وفيها قوله في رسول الله ﷺ:

فإن مِن جودك الدنيا وضَرّها***ومن علومك علم اللوح والقلم.

فجعل الدنيا وضرتها يعني الآخرة، مما جاد به النبي ﷺ على الناس، وجعل من علومه علم الغيب، علم اللوح والقلم، فبالله عليكم ماذا بقي لله رب العالمين، لقد قال النبي الخاتم محمد ﷺ: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله).

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

الوقفة الثالثة: (مولده ﷺ ورضاعه):

أما بعد، فيقول الله ﷻ في سورة الأعراف: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾[الأعراف:١٥٦-١٥٧].

معاشر المؤمنين، هذه ثالث وقفة مع سيرة النبي الخاتم محمد ﷺ، وفيها بيان ما صاحب مولده ورضاعه، من البركات والمعجزات، والآيات الواضحات البينات.

من الدلائل التي صاحبت مولده ﷺ: ما حدّث به حسان بن ثابت رضي الله عنه قال: "والله إني لغلام يَفَعَةٌ ابن سبعٍ سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديًّا يصرخ بأعلى صوته على أُطُمِهِ -أي: حصنه- بيثرب يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه، قالوا: ويلك ما لك؟ قال: طلع الليلةَ نجمُ أحمدَ الذي ولد به" رواه ابن إسحاق وحسن الألباني إسناده، وورد أيضًا ما يشبه ذلك، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: "قال زيد بن عمرو بن نفيل: قال لي حبر من أحبار الشام: قد خرج في بلدك نبي أو هو خارج، قد خرج نجمه، فارجع فصدقه واتبعه" رواه أبو نُعيم وحسنه الألباني أيضًا.

ولا يُستغرب هذا، فقد كان أهل الكتاب ينتظرون بعثة النبي الخاتم، الذي بَشرت به أنبياؤهم، كما قال ﷻ في اليهود: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٨٩] أي: قد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب، يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون: إنه سيبعث في آخر الزمان نبي، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله محمدًا ﷺ من غيرهم من العرب من قريش، كفروا به على علم حسدًا وبغيًا، كما قال ربنا ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٨٩].

لقد كانت اليهود تعلم صفته ومخرجه، فقد كانت موجودة في كتبهم، ويعرفها علماؤهم وأحبارهم، كما قال الله ﷻ: ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾[الأعراف:١٥٧].

في مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر، أتوا على رجل من اليهود ناشرًا التوراة يقرؤها، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت، كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال رسول الله ﷺ: (أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟ فقال اليهودي برأسه هكذا –أي: لا– فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة، إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، فقال ﷺ: أقيموا اليهودي عن أخيكم، ثم تولى كفنه والصلاة عليه) قال الحافظ ابن كثير: "هذا حديث جيد قوي، له شاهد في الصحيح عن أنس رضي الله عنه".

نعم، لقد كانت اليهود تعلم صفته ومخرجه، بل كانوا ينتظرون مولده، فقد روى ابن سعد وأبو نُعيم والحاكم بسند حسن كما قال الحافظ ابن حجر: رووا عن عائشةَ أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: "كان يهودي قد سكن مكة يتجر بها، فلما كانت تلك الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، قال في مجلس من قريش: يا معشر قريش، هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم: والله ما نعلمه، قال: احفظوا ما أقول لكم، ولد هذه الليلةَ نبي هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامةٌ فيها شَعَرَاتٌ متواترات، كأنهن عُرفُ فرس، لا يرضعُ ليلتين، فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله، فقالوا: لقد ولد الليلة لعبدالله بن عبد المطلب غلام، سموه محمدًا، فالتقى القوم حتى جاؤوا اليهودي، فأخبروه الخبر، قال: اذهبوا معي حتى أنظر إليه، فخرجوا معه حتى أدخلوه على آمنة، فقالوا: أخرجي إلينا ابنك، فأخرجته وكشفوا لليهودي عن ظهره، فرأى تلك الشامة، فوقع اليهودي مغشيًّا عليه، فلما أفاق قالوا: ويلك ما لك؟ قال: والله ذهبت النبوة من بني إسرائيل، أفرحتم به يا معشر قريش؟ والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق إلى المغرب" صدق الله عز وجل حين قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٤٦].

ثم إنه اختُلف هل ولد رسول الله ﷺ مختونًا أو أن جده ختنه؟ وقد روي عن العباس رضي الله عنه أنه قال: "ولد رسول الله ﷺ مختونًا مسرورًا، فأَعجب ذلك جده عبد المطلب، وحضي عنده وقال: ليكونن لابني هذا شأن، فكان له شأن" أخرجه أبو نعيم في الدلائل، لكن قال الحافظ ابن كثير: "قد ادّعى بعضهم صحته لما ورد له من الطرق، حتى زعم بعضهم أنه متواتر، وفي هذا كله نظر، ثم قال: قد رأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية مسألة في ذلك، فرد هذه السياقات كلّها وضعفها، وجعل بعضها موضوعًا –أي: مكذوبًا– وقال:

الصحيح أنه ﷺ إنما خُتن كما تختن الغلمان، ختنه جده عبد المطلب، وعمل له دعوة جمع عليها قريشا والله ﷻ أعلم".

ثم سموه محمدًا، يقول أهل اللغة: "كل جامع لصفات الخير يسمى محمدًا"، وقال بعض العلماء: "ألهمهم الله ﷻ أن سموه محمدًا، لما فيه من الصفات الحميدة، ليلتقيْ الاسم والفعل، ويتطابق الاسم والمسمى، في الصورة والمعنى، كما قال عمه أبو طالب ويروى لحسان:

وشق له من اسمه ليجله***فذو العرش محمود وهذا محمد.

وأما حواضنه ومراضعه ﷺ:

فمنهن ثويبة مولاة عمه أبي لهب، أرضعته مع أمه ﷺ، في الصحيح أن أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها وأمها قالت لرسول الله ﷺ: إنا نُحَدّث أنك تريد أن تنكح درة بنت أبي سلمة، فقال ﷺ: (إنها لو لم تكن ربيبتي في حَجْري ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة أرضعتني وأبا سلمة ثويبة).

قال عروة بن الزبير: "وثويبة مولاة أبي لهب، وكان أبو لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ، وما يروى من أنه أعتقها –أي: أبو لهب– لما بشرته بمولد رسول الله ﷺ، فهو مما لا أصل له، قاله العلامة الألباني. ولم يكن أبو سلمة هو الأخ الوحيد لرسول الله ﷺ من الرضاعة، فقد كان عمه حمزة كذلك، ولهذا لما عَرض علي بن أبي طالب على النبي ﷺ الزواج من ابنة حمزة أجابه ﷺ بقوله: (إنها ابنة أخي من الرضاعة) خرجه الإمام البخاري.

ومن إخوته من الرضاعة أولاد حليمة السعدية مرضعته، وهم: عبدالله وأنيسة والشيماء، وكانت أم أيمن –واسمها بركة– تحضنه، وكان قد ورثها من أبيه، فلما كبر أعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة، فولدت له أسامة بن زيد –حب رسول الله ﷺ.

وكان من مراضعه ﷺ: حليمة بنت أبي لؤيب السعدية، وكانت من هوازن، أي: من بين سعد بن بكر بن هوازن، فهي أمه من الرضاعة، وزوجها أبوه من الرضاعة، واسمه الحارث بن عبدالعزى، وأولادها إخوته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة، وهم عبدالله وأنيسة والشيماء، وذكروا أن الشيماء كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمه إذ كان عندهم. قال الحافظ ابن حجر غفر الله له: "ومن سعادتها –يعني: حليمة– توفيقها للإسلام هي وزوجها وبنوها". وقال الحافظ المنذري: "حليمة أسلمت وجاءت إليه ﷺ وروت عنه".

ولقد كان في رضاعه ﷺ من حليمة السعدية آيات باهرة، وهذا الرضاع ثابت بإخباره ﷺ، فقد قال ﷺ: (واستُرضعت في بني سعد بن بكر) رواه ابن إسحاق، وقال ابن كثير: "إسناده جيد"، قال: "أقام النبي ﷺ عندها، في بني سعد نحوًا من أربع سنين.

وأما حديث حليمة السعدية في أخذها رسول الله ﷺ من مكة لإرضاعه، فقد خرجه ابن إسحاق وأبو يعلى، وصححه ابن حبان، وقال الذهبي: "هذا حديث جيد الإسناد"، وقال ابن كثير: "هذا الحديث قد رُوي من طرق أخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي". وقد روى هذا الحديث عبدالله بن جعفر، عن حليمة السعدية، قال ابن حجر: "إن الشواهد التي تدل على إدراك عبدالله بن جعفر لها كثير، وأسانيدها جيدة" انتهى كلامه. "ورواه عن عبدالله بن جعفر جهم بن أبي الجهم، وهذا قد ذكره البخاري وأبو حاتم وابنه، ولم يذكروا فيه جرحا، وذكره ابن حبان في الثقات، وروى عنه ثلاثة، منهم اثنان من الثقات، فالرجل معروف باسمه وعينه" هذا كلام من أثبت الحديث، وله شواهد بحمد الله ﷻ، والكلام فيه معروف.

وهذا رواية ابن حبان في صحيحه للحديث: "عن عبدالله بن جعفر عن حليمة أم رسول الله ﷺ السعدية، التي أرضعته أنها قالت: "خرجت في نسوة من بني سعد بن بكر نلتمس الرضعاء بمكة، على أتَان لي قمراء –أي: شديدة البياض– في سنة شهباء –أي: ذات قحط وجدب– لم تُبق لنا شيئا، ومعي زوجي، ومعنا شارف لنا –أي: ناقة مسنة هرمة– والله ما إن يَبِضُّ علينا بقطرة من لبن، ومعي صبي لي، إن ننام ليلتنا من بكائه، ما في ثدْيَيَّ ما يغنيه، فلما قدمنا مكة، لم تبق منا امرأة إلا عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، وإنما كنا نرجوا كرامةَ الرضاعة من والد المولود، وكان ﷺ يتيمًا، وكنا نقول: يتيمًا، ما عسى أن تصنع أمه به، حتى لم يبق من صواحبي امرأة إلا أخذت صبيا غيري، فكرهت أن أرجع ولم أجد شيئا، وقد أخذ صواحبي، فقلت لزوجي: والله لأرجعن إلى ذلك اليتيم، فلآخذنه، فأتيته فأخذته ورجعت إلى رحلي، فقال زوجي: قد أخذتيه؟ فقلت: نعم والله، وذاك أني لم أجد غيره، فقال: قد أصبت، فعسى الله أن يجعل فيه خيرا، قالت: فوالله ما هو إلا أن جعلته في حَجري، أقبل عليه ثديي بما شاء الله من اللبن، فشرب حتى روي، وشرب أخوه –يعني: ابنها– حتى روي، وقام زوجي إلى شارفنا من الليل، فإذا بها حافل –أي: كثيرة اللبن– فحلبها من اللبن ما شئنا، وشرب حتى روي، وشربت حتى رويت، وبتنا ليلتنا تلك شباعًا رواء، وقد نام صبياننا، يقول أبوه –يعني: زوجها–: والله يا حليمة، ما أُراك إلا قد أصبت نسمة مباركة،

قد نام صبينا وروي، قالت: ثم خرجنا، فوالله لخرجت أتاني أمام الركب، حتى إنهم ليقولون: ويحك كفي عنا، أليست هذه بأتانك التي خرجت عليها؟ فأقول: بلى والله وهي قُدامنا، حتى قَدمنا منازلنا من حاضر بني سعد بن بكر، فقدمنا على أجدب أرض الله، فوالذي نفس حليمة بيده، إن كانوا ليسرحون أغنامهم إذا أصبحوا، ويسرح راعي غنمي، فتروح بطانا لَبِنًا حُفَّلا، وتروح أغنامهم جياعا هالكة، ما لها من لبن، قالت: فنشرب ما شئنا من اللبن، وما من الحاضر أحد يحلب قطرة، ولا يجدها، فيقولون لرعائهم: ويلكم ألا تسرحون حيث يسرح راعي حليمة، فيسرحون في الشعب الذي تسرح فيه، فتروح أغنامهم جياعا ما بها من لبن، وتروح غنمي لَبِنًا حُفَّلا، وكان النبي ﷺ يَشِب في اليوم شباب الصبي في شهر، ويَشِب في الشهر شباب الصبي في سنة، فبلغ سنة –ولابن إسحاق: بلغ سنتيه- وهو غلام جَفْر – أي: ممتلئ قوي على الأكل- قالت: فقدمنا على أمه، فقلت لها وقال لها أبوه: ردي علينا ابني فلنرجع به، فإنا نخشى عليه وباء مكة، قالت: ونحن أَضَن شيء به مما رأينا من بركته ﷺ، قالت: فلم نزل حتى قالت: ارجعا به فرجعنا به، فمكث عندنا شهرين، قالت: فبينا هو يلعب وأخوه يوما خلف البيوت، يرعيان بَهْما لنا، إذ جاءنا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه: أدركا أخي القرشي، قد جاءه رجلان فأضجعاه وشقا بطنه، فخرجنا نشتد فانتهينا إليه، وهو قائم مُنْتَقَع لونه –أي: متغير لونه- فاعتنقه أبوه واعتنقته، ثم قلنا: ما لك أيْ بني؟ قال: أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني ثم شقا بطني، فوالله ما أدري ما صنعا، قالت: فاحتملناه ورجعنا به، قالت: يقول أبوه: يا حليمة، ما أُرى هذا الغلام إلا قد أصيب فانطلقي فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف، قالت: فرجعنا به، فقالت –أي: آمنة- : ما يردكما به، فقد كنتما حريصين عليه؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا أن كفلناه، وأدينا الحق الذي يجب علينا، ثم تخوفنا الأحداث عليه فقلنا: يكون في أهله، فقالت أمه: والله ما ذاك بكما فأخبراني خبركما وخبره، فوالله ما زالت بنا حتى أخبرناها خبره، قالت: فتخوفتما عليه؟ كلا والله، إن لابني هذا شأنا، ألا أخبركما عنه؟ إني حملت به فلم أحمل حملا قط كان أخف علي، ولا أعظم بركة منه، ثم رأيت نورا كأنه شهاب خرج مني حين وضعته أضاءت لي أعناق الإبل ببصرى، ثم وضعته فما وقع كما يقع الصبيان، وقع واضعا يده بالأرض رافعا رأسه إلى السماء، دعاه والحقا بشأنكما" هذه رواية ابن حبان غفر الله له. ولقد ثبت عن النبي ﷺ نفسه، أنه حدَّث بما جرى له في بني سعد، فقال ﷺ: (استرضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بهم لنا، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب مملوء

ثلجا، فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوَزَنَني بعشرة فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنهم) رواه ابن إسحاق وقال ابن كثير: "إسناده جيد قوي"، وروى أحمد عنه ﷺ بسند حسن كما قال الهيثمي ذكر شق صدره، ثم قال ﷺ: (وفَرِقت فرقًا شديدًا- أي: خفت- ثم انطلقت إلى أمي -يعني: حليمة- فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفَقَت أن يكون قد التبس بي -أي: أُصبت في عقلي- فقالت: أعيذك بالله، فرَحَّلت بعيرا لها فجعلتني على الرحل وركبت خلفي، حتى بلغنا إلى أمي فقالت: أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيت، فلم يَرُعْها وقالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام).

وهذه الحادثة كانت مشهورة عند أصحابه ﷺ، يحدثون بها، لبيان شرفه وفضله وحفظ الله له، ولما فيها من الآيات والدلائل النبوية، ههو الإمام مسلم يروي في صحيحه عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أنه قال: "إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، واستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني: ظئره- فقالوا: إن محمدًا قد قُتل، فاستقبلوه وهو مُنتقع اللون، قال أنس رضي الله عنه: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ".

معاشر المؤمنين، لقد تكرر شق صدره ﷺ ليلة الإسراء، خرج ذلك الإمام البخاري في صحيحه، الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله، من طريق أنس رضي الله عنه أنه قال: كان أبو ذر يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: (فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فترل جبريل ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىءٍ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا)، قال ابن كثير: "ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرتين، مرة وهو صغير، ومرة ليلة الإسراء، ليتأهب للوفود إلى الملأ الأعلى، ولمناجاة الرب عز وجل، والمثول بين يديه تبارك وتعالى".

وقد قال بعضهم في قصة رضاعه ﷺ، وما فيها من العبر والدلالات:

برب الخلق يشرح كل صدر***وعند الله حاز أجل قدر

بشق الصدر خُص كشق بدر***كما خص الكليم بشق بحر

بدا من خير بيت في قريش***وأُرضع في بني سعد بن بكر
فضم إلى فصاحة آل سعد***سماحة هاشم وجلال فهر
لقد سعدت حليمة حيث حازت***رضاعته ونالت كل فخر
فدر عليه منها الثدي حالا***ولم يك قبل ذا يشفي بدر
وشارفها جرت لبنا فأروت***وكانت لا تدر لهم بقطر
وأسرعت الأتان به نهوضا***فأعجب كل من في الركب
وكانت من وراء القوم ضعفا***فصارت عن أمام القوم تجري
فقالوا: إن لابنك ذا لشأنا***أخذت مباركا فثقي بيسر
وكان يشب في شهر كعام***إذا اعتبروا وفي يوم شهر
وخلف بيوتهم جبريل وافى***فشق الصدر منه بغير ضر
وألقى مغمز الشيطان منه***فطهره فنال أتم طهر
حشى منه الحشى علما وحلما***وإيمانا على ورع وصبر
وأكرمه الإله بشق صدر***ووضع الوزر عنه ورفع الذكر
إله العرش أرسله بشيرا***نذيرا داعيا لهدى ويسر
عليه صلاة رب العرش تندى***كما تندى الرياض بكل فجر
يواصل عرفها آلا وصحبا***كأن ثناهم نفحات زهر.

ولقد كان لرضاعه في بني سعد آثار حميدة، وعوائد جليلة، قال الحافظ ابن كثير: "إن بركته ﷺ حلت على حليمة السعدية وأهلها وهو صغير، ثم على عادت على هوازن بكمالهم فواضله، حيث أسرهم بعد وقعتهم، وذلك بعد فتح مكة بشهر، فمتوا إليه –توسلوا- برضاعه فأعتقهم، وتحنن عليهم وأحسن إليهم". وقد روى محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: "كنا مع رسول الله ﷺ بحنين، فلما أصاب من أموالهم وسباياهم، أدركه وفد هوازن بالجِعرانة وقد أسلموا فقالوا: يا رسول الله، إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك، وقام زهير بن صُرد فقال: يا رسول الله، إن ما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك فلو أنا ملحنا –أي: أرضعنا- ابن أبي شَمِر –يعني: الغساني ملك الشام- أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك، رجونا عائدتهما –أي: فضلهما- وعطفهما، وأنت خير المكفولين ثم أنشد شعرا" قال الألباني: "سنده حسن".

وقد رويت هذه القصة عن أبي صُرد زهير بن جَرْول -وكان رئيس قومه- قال: "لما أسرنا رسول الله ﷺ يوم حنين، فبينا هو يميز بين الرجال والنساء وَثَبْت حتى قعدت بين يديه، وأسمعته شعرا أذكره حين شب ونشأ في هوازن، حيث أرضعوه:

امنن علينا رسول الله في دعة***فإنك المرء نرجوه وننتظر

امنن على نسوة قد كنت تَرْضعها***إذ فوك تملؤها من محضها الدِرَر

إذ أنت طفل صغير كنت تَرْضعها***وإذ يُرينك ما تأتي وما تذر

إنا لنشكر للنعمى وإن كُفرت***وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فألبس العفو من قد كنت ترضعه***من أمهاتك إن العفو مُشْتَهَر

إنا نؤمل عفواً منك تلبسه***هذا البرية إذ تعفو وتنتصر

فاغفر عفا الله عما أنت راهبه***يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

انتهى الشريط الأول، والشريط الثاني غير موجود...

الوقفة السابعة: (أقسام الوحي وذكر السابقين في الإسلام):

الحمد لله القائل في محكم التتريل: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[الأنفال:٢٦]، الحمد لله الذي نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، حتى تركها على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات الله وسلامه عليه ما تعاقب الليل والنهار.

معاشر المؤمنين، هذه سابع وقفة مع سيرة رسول الله محمد ﷺ، في بدء أول أمر دعوته ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[المزمل:٥]، وقال الله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾[القيامة:١٦-١٧]، وقال ربنا ﷻ: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[طه:١١٤].

تقدم بيان كيفية مجيء جبرائيل بالوحي إلى رسول الله ﷺ أول مرة، وما لقيه النبي الكريم ﷺ من الجَهْد والمشقة، ثم تتابع الوحي وحمي، سأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: (أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لِيَ الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة ﵂: ولقد رأيته ﷺ، يترل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصَّد عرقا) خرجاه في الصحيحين.

وكان النبي ﷺ يعاني مشقة عند نزول الوحي، ففي حديث الإفك قالت عائشة ﵂: "فوالله ما رام –أي: ما فارق– رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من البيت، حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء –أي: الشدة والمشقة– حتى كأنه يتحدر منه مثل الجُمان –أي: اللؤلؤ– من العرق وهو في يوم شات، من ثقل الوحي الذي يترل عليه"، وفي صحيح مسلم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال: "كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كَرِبَه ذلك، وتربَّد وجهه" أي: تغير. وفي الصحيحين عن زيد بن ثابت: "أنه نزلت الآية ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[النساء:٩٥] من سورة النساء، قال: وكانت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي وأنا أكتب، فلما نزل الوحي كادت تَرُضُّ فخذي". يقول عبدالله بن عمرو

ﷺ: "أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة، وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فترل عنها" خرجه الإمام أحمد في مسنده.

يقول الإمام ابن إسحاق غفر الله له: "ثم تتابع الوحي إلى رسول الله ﷺ، وهو مصدق بما جاءه منه، قد قبله بقبوله، وتحمل ما حُمِّله، على رضا العباد وسَخَطهم، وللنبوة أثقال ومؤنة، لا يحملها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله وتوفيقه، لما يلقون من الناس، فمضى رسول الله ﷺ على ما أمر الله على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى، وآمنت خديجة بنت خويلد زوجته، وصدقت بما جاءه من الله، وأعانته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن رسوله محمد ﷺ، لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه، وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس ﷺ وأرضاها. قال: وجعل رسول الله ﷺ يذكر جميع ما أنعم الله به عليه وعلى العباد من النبوة سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله"، وقد اختلف في أول من أسلم على أقوال، قال الحافظ ابن كثير غفر الله له: "والجمع بين الأقوال كلها: أن خديجة ﷺ أول من أسلم من النساء، وظاهر السياقات وقبل الرجال أيضا، وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة رضي الله عنه، وأول من أسلم من الغلمان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فإنه كان صغيرا دون البلوغ على المشهور، وهؤلاء كانوا إذاك أهل البيت، وأول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإسلامه كان أنفع من إسلام من تقدم ذكرهم، إذ كان صدرًا معظمًّا، ورئيسا في قريش مكرما، وصاحب مال وداعيةً إلى الاسلام، وكان محبَّبا متألِّفا، يبذل المال في طاعة الله ورسوله". فقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي الدرداء في حديث ما كان بين أبي بكر وعمر ﷺ من الخصومة، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي، قال: فما أوذي أبو بكر بعدها)، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه مبينا نعمة الله عليه بهذا السبق: "ألست أحق الناس بها؟ ألست أول من أسلم؟" رواه الترمذي وصححه العلامة الألباني، قال يوسف بن الماجشون: "أدركت مشيختنا، لا يشكون أن أول القوم إسلامًا أبو بكر الصديق رضي الله عنه"، قال الحافظ ابن كثير: "وهو المشهور عن جمهور أهل السنة". خرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: "رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر ﷺ وأرضاهم"، وقد روى الإمامان

أحمد وابن ماجه، بسند حسن كما قال العلامة الألباني، عن ابن عباس في ذكر أسماء الرعيل الأول، السابقين إلى الإسلام، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار وأمه سمية، وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله عز وجل، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد رضي الله عنه وأرضاه".

وههو إمام المغازي والسير محمد بن إسحاق غفر الله له ورفع درجته، فإنه اجتهد في جمع سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه، والناس كما يقول الإمام الشافعي: "عيال عليه في هذا العلم"، ههو ابن إسحاق يصف حال الإسلام في أول أيامه يقول: "لما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه، ودعا إلى الله عز وجل، وكان أبو بكر رجلا محببا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلا تاجرا، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وَثِق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه فيما بلغني: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين، فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ ومعهم أبو بكر رضي الله عنه، فعرض عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، وأنبأهم بحق الإسلام فآمنوا، وكان هؤلاء النفرُ الثمانية، الذين سبقوا إلى الإسلام، فصدقوا رسول الله ﷺ، وآمنوا بما جاء من عند الله فرضي الله عنهم أجمعين"، صدق الله عز وجل حين قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[الأنفال:٢٦].

أورد العلامة الألباني في صحيح السيرة ما رواه الإمام ابن جرير بسنده، عن عُفَيِّف أخي الأشعث بن قيس لأمه أنه قال: "جئت زمن الجاهلية إلى مكة، فترلت على العباس بن عبد المطلب، فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء، وأنا أنظر إلى الكعبة، أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء، ثم استقبل الكعبة فقام مستقبلها، فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه، فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب –يعني: رسول الله ﷺ– فركع الغلام والمرأة، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة، فخرَّ الشاب ساجدًا فسجدا معه، فقلت: يا عباس أمر عظيم، فقال: أمر عظيم؟ فقال العباس بن عبد المطلب: أتدري من هذا؟ قلت: لا،

قال: هذا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ابن أخي، أتدري من الغلام؟ قلت: لا، قال: هذا علي بن أبي طالب، أتدري من هذه المرأة التي خلفهما؟ قلت: لا، قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي، وهذا حدثني -يعني: رسول الله ﷺ- حدثني أن ربك ربَّ السماء والأرض أمره بهذا الذي تراهم عليه، وايم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحدا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة".

وههو شاهد عِيان عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه، يحكي حال رسول الله ﷺ أول ما بعث، وذلك فيما خرجه الإمام مسلم عنه أنه قال: "كنت وأنا في الجاهلية، أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه فقلت له: ما أنت؟ فقال ﷺ: أنا نبي، فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله ﷻ، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حر وعبد، قال عمرو بن عبسة: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني، ثم ذكر عمرو هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقدومه عليه، وإقبال الناس على دين الله أفواجا".

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه، بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[النصر:١-٣].

معاشر المؤمنين، يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[الأحزاب:٤٥-٤٦]، يقول رسول الله ﷺ: (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء) وقد تقدم شيء من غربة الإسلام أول أيامه، وقلة من اتبعه، وهذا لا يضر أهله، لأن العبرة ليست بكثرة الناس، إنما العبرة بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[يوسف:١٠٣]، وقال الله ﷻ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[الأنعام:١١٦]، وقد ذكر رسول الله ﷺ في الحديث: (أنه يأتي النبي يوم القيامة وليس معه إلا رجل أو رجلان، بل يأتي النبي يوم

القيامة وليس معه أحد) وهذا لا يضره، فإنه على الحق، ولو لم يتبعه أحد، وفي هذا بشارة لأهل الإسلام، أنه لا يضرهم كثرة من يخالفهم ولا قوته، فإن العبرة باتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفي سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه عبرة، فمع قلتهم فإن الله ﷻ أيدهم وكثرهم بعد ذلك، وجلب القلوب إلى أهل الإسلام، ففتحت الأرض شرقا وغربا لأصحاب رسول الله ﷺ، لما تمسكوا بدين الله ﷻ، ونبذوا الشرك وعبادة الأولياء والصالحين والأوثان، وهذا كما قال الله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾[النور:٥٥]، فإذا تحققت العبودية لله ﷻ، وتركت عبادة القبور والأولياء والصالحين والجن وغير ذلك من أنواع الشرك، وأقبل أهل الإسلام على ربهم بتوكل ولجوء وتضرع، تنزل النصر من الواحد الديان ﷻ.

في صحيح البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: "ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام" وهو رضي الله عنه قد أخبر بحسب علمه.

وممن أسلم في تلك الأيام العصيبة، أيام غربة الإسلام، رجل من أزد شنوءة يقال له ضماد، كما في صحيح مسلم عن ابن عباس أنه قال: إن ضمادًا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل، لعل الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه فقال: يا محمد، إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك -يعني: في أن أرقيك-؟ فلم يرض رسول الله ﷺ بذلك، لكنه ﷺ تكلم مع ضماد بكلام قال فيه ﷺ: (إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، فقال له ضماد: أعد علي هؤلاء الكلمات، فإنهن قد بلغن ناعوس البحر –أي: وسطه-، فأعاد عليه النبي ﷺ هذه الكلمات ثلاث مرات، فمد يده وقال: بايعني على الإسلام؟ قال: وعلى قومك؟ قال: فبايعه النبي ﷺ، رضي ضماد بذلك).

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

الوقفة الثامنة: (الجهر بالدعوة):

أما بعد، فيقول الله ﷻ، مثنيا على السابقين الأولين، من أصحاب رسول الله محمد ﷺ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠].

تقدم إسلام ثلة من السابقين الأبرار، فكانوا كما سلف في غربة وشدة، والله ناصر دينه، ومعز أوليائه، وقد سرد ابن إسحاق غفر الله له أسماء أناس آخرين، أسلموا قديما من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: "ثم أسلم أبو عبيدة، وأبو سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وأختها عائشة وهي صغيرة، وقدامة بن مظعون، وعبدالله بن مظعون، وخباب بن الأرت، وعبدالله بن مسعود، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان الرومي، ﷺ أجمعين".

ثم دخل الناس جماعات من الرجال والنساء، حتى فشى أمر الإسلام بمكة وتُحدث به، ثم أمر الله رسوله محمدا ﷺ بعد ثلاث سنين من البعثة، بأن يصدع بما أمر، وأن يصبر على أذى المشركين، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر يصلون بشعاب مكة، إذ ظهر عليهم بعض المشركين، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحي جمل فشجه، فكان أول دم أريق في الإسلام، وأمر الله رسوله محمدا ﷺ بإبلاغ الرسالة إلى الخاص والعام، والصبر على إعراض الجاهلين المكذبين المعاندين، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[الشعراء:٢١٤-٢١٦]، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "لما أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]، أتى النبي ﷺ الصفا، فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه، فاجتمع الناس إليه، بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا، فأنزل الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ

وَتَبَّ ﴾[المسد:١]" رواه الإمام أحمد والشيخان. يقول أبو هريرة رضي الله عنه: "لما أنزلت هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء:٢١٤]، دعا رسول الله ﷺ قريشا، فعم وخص فقال: (يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئا، إلا أن لكم رحِمًا سأَبُلها ببِلالها) رواه أحمد ومسلم، ومعنى سأبلها: سأصلكم في الدنيا رعاية للرحم، ولا أغني عنكم من الله شيئا.

فمضى رسول الله ﷺ يدعو إلى الله ﷻ، ليلا ونهارا، سرا وجهارا، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عنه راد، ولا يصده عنه صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، في المواسم ومواقف الحج، يدعو من لقيه من حر وعبد، وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق في ذلك عنده سواء، وتسلط عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم، تسلط عليهم الأشداء الأقوياء من مشركي قريش، بالأذية قولا وفعلا، وكان من أشد الناس عليه: عمه أبو لهب، واسمه عبدالعزى بن عبدالمطلب، وامرأته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، وخالفه في ذلك عمه أبو طالب، وكان رسول الله ﷺ أحبَّ خلق الله إليه، فكان يحنو عليه، ويحسن إليه، ويدافع عنه، ويحامي ويخالف قومه في ذلك، مع أنه على دينهم وعلى ملتهم، إلا أن الله ﷻ، قد امتحن قلبه بحب ابن أخيه محمد رسول الله ﷺ، حبا طبعيا لا شرعيا، فكان استمراره على دين قومه من حكمة الله ﷻ، ومما صنعه لرسوله ﷺ من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب، لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويوقرونه، ولاجترؤوا عليه، ولمدوا إليه أيديهم وألسنتهم بالسوء، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص:٦٨].

وكان أبو طالب يقول في دفاعه عن رسول الله محمد ﷺ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم***حتى أوسد في التراب دفينا

وأما عمه أبو لهب، فقد كان صادا عن سبيل الله، مؤذيا لرسول الله، يقول ربيعة بن عباد من بني الديل، وكان جاهليا فأسلم، يقول: "رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية، في سوق ذي المجاز وهو يقول: يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، والناس مجتمعون عليه، ووراءه

رجل وضيء الوجه، أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب" خرجه الإمام أحمد في مسنده.

ولقد تنوعت أساليب المشركين في محاربة الدعوة النبوية، يقول الله ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[التوبة:٣٢].

لما نزل قوله ﷻ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الحجر:٩٤]، قام هذا النبي الكريم محمد ﷺ، مشمرا عن ساعد الجد، صادعا بالحق، داعيا إلى هجر الأوثان، مسفها عقول عابديها، مبينا حقائق الإسلام، داحضا الأباطيل العقدية، التي كانت تعشعش في عقول أهل الجاهلية، معلنا البراءة من الشرك وأهله، فحاله في هذا، كحال نبي الله إبراهيم عليه السلام، كما قال الله ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤].

فلما رأت قريش أن أثر هذه الدعوة لم يكن محدودا، كما كان الحال مع من دعا إلى نبذ الأصنام قبل رسول الله ﷺ، كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، لما رأت قريش أن أتباع النبي ﷺ يكثرون ولا يقلون، ويوشك أن تقوض هذه الدعوة عروش الباطل والوثنية، عند ذلك سعى صناديد قريش في الصد عن سبيل الله ﷻ، واستعملوا شتى أساليب ووسائل الترغيب والترهيب، للصد عن هذا الدين، الذي هدد مصالحهم التي يجنونها من وجود المسجد الحرام في أرضهم، وحطَّ من تكبرهم على غيرهم، ووقف أمام شهواتهم في التسلط واقتراف السيئات والموبقات، وقد حذر ربنا من مسالك الصد هذه فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[الأعراف:٨٦].

وكانت أساليبهم في محاربة الدعوة النبوية على النحو الآتي:

الأسلوب الأول: وهو محاولة التأثير على عمه أبي طالب، حتى يكفه عن الدعوة، أو تجريده من جواره –أي: حمايته–، فقد ذهب جماعة من كبراء قريش إلى عمه أبي طالب وقالوا له: "إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه، لكنه لم يتخل عن رسول الله ﷺ.

الأسلوب الثاني: التهديد بمنازلة الرسول ﷺ وعمه أبي طالب، فإن رسول الله ﷺ لما مضى على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعوهم إليه، غضبت منه قريش، وعادوه وحقدوا عليه، وأكثروا من ذكره، وحض بعضهم بعضا، ومشوا إلى عمه أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: "يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومترلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، ثم أقسموا بأنهم لن يصبروا على أفعاله، حتى يكفه عنهم أو ينازلوه وإياه في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، عند ذلك عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه، فأبلغ رسول الله ﷺ بالذي قالوه، وطلب منه أن يبقي عليه وعلى نفسه، ولا يحمله من الأمر ما لا يطيق، فحلق النبي ﷺ ببصره إلى السماء وقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قالوا: نعم، قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة، فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا" رواه ابن إسحاق وسنده حسن.

الأسلوب الثالث لمحاربتهم دعوة رسول الله ﷺ: الاتهامات الباطلة لصد الناس عن رسول الله ﷺ، فاتهموه بالجنون، وفي ذلك نزل قوله ﷻ: ﴿ **وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ** ﴾[الحجر:٦]، وقد دافع الله عن رسوله محمد ﷺ فقال: ﴿**مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ**﴾[القلم:٢]. واتهموه بالسحر، وفي ذلك نزل قوله ﷻ: ﴿ **وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ** ﴾[ص:٤]، وقال الله ﷻ: ﴿**وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا**﴾[الفرقان:٨]. واتهموه بالكذب، وفي ذلك يقول ربنا ﷻ: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ** ﴾[الفرقان:٤]. واتهموه بالإتيان بالأساطير، كما قال ربنا ﷻ: ﴿ **وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِىَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا** ﴾[الفرقان:٥]. وقالوا: إن هذا القرآن ليس من عند الله ﷻ، وإنما هو من عند البشر، كما قال ربنا ﷻ: ﴿**وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ** ﴾[النحل:١٠٣]. واتهموا أتباعه بالضلالة، ﴿ **وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ**﴾[المطففين:٣٢].

الأسلوب الرابع: السخرية والاستهزاء، فكانوا إذا مَرَّ بهم رسول الله ﷺ سخروا منه واستهزؤوا، كما قال ربنا ﷻ: ﴿ **وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ**

رَسُولًا ﴾[الفرقان:٤١]، وأنزل الله عليه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأنعام:١٠].

ومن كبار المستهزئين: الأسود بن عبدالمطلب بن أسد، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأنزل الله على رسوله ﷺ قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[الحجر:٩٥]، ومن كبار المستهزئين الساخرين: أبو جهل فرعون هذه الأمة، وأمية بن خلف، والنَظْر بن الحارث، والأخنس بن شريك، وأبو لهب، وأبي بن خلف، وقد انتقم الله لرسوله محمد ﷺ منهم، في مواطن عديدة سيأتي ذكرها.

معاشر المؤمنين، من أساليب المشركين في الصد عن دعوة رسول الله ﷺ، الأسلوب الخامس: وهو التشويش، فقد المشركون يتواصون بينهم بافتعال ضجة وصياح منكر عندما يقرأ القرآن، حتى لا يُسمع فيُفهم، فيترك أثرا في عقل نقي وقلب تقي، وفي ذلك يقول المولى جلّ جلاله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت:٢٦].

الأسلوب السادس: طلبهم أن تكون للرسول ﷺ معجزات، أو مزايا ليست عند البشر العاديين، ومن ذلك قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾[الفرقان:٧-٨]، إلى غير ذلك من التعنت والمجادلة بالباطل، يقول الحافظ ابن كثير: "اقتضت الحكمة الإلهية والرحمة ألا يجابوا إلى ما سألوا من المعجزات، لأن الله علم أنهم لا يؤمنون بذلك، فيعاجلهم بالعذاب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعوا -أي: يزرعوا مكانها- فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم -أي: تمهلهم- وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، قال ﷺ: لا بل أستأني بهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾[الإسراء:٥٩]" رواه الإمام أحمد في مسنده، وجود إسناده الحافظ ابن كثير في تاريخه.

ومن أساليبهم في الصد عن سبيل الله عزّ وجلّ الأسلوب السابع: المساومات، فلقد حاولت قريش من خلال هذا الأسلوب أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، وذلك بأن يُترك المشركون على ما هم عليه، ويُترك النبي ﷺ على ما هو عليه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[القلم:٩]، ولما قالوا: اعبد آلهتنا يوما ونعبد إلهك يوما، أنزل الله عزّ وجلّ سورة

الكافرين، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[الكافرون:١–٢] الآيات. ولقد ساوموا عمه فيه، حتى اقترحوا على عمه أبي طالب بأن يعطوه عُمارة بن الوليد بدلا عن محمد ﷺ فيأخذوه ويقتلوه، فأنكر ذلك عمه أبو طالب وأبى.

وفيما تقدم من سيرته ﷺ فوائد عديدة:

فمن ذلك: صبره ﷺ على الدعوة وتحمله للأذى.

ومن ذلك: أن الله ﷻ أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما أمره ربه ﷻ، وأن يصبر على ذلك، وإن آذاه من آذاه من الخلق.

ومن ذلك: أنه ﷺ لما دعا قومه وكانوا مشركين، دعاهم إلى الإسلام، وتلطف إليهم ﷺ فقال: (إلا أن لكم رحِمًا سأَبُلها بِبلالها)، وهذا يبين مدى سماحة الشريعة الإسلامية، فإنه ﷺ يعلم أنهم قوم مشركون، فتلطف إليهم لعل الله يهديهم، وقد قال ربنا ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:٨]، وسألت أسماء بنت أبي بكر رسول الله ﷺ، فذكرت أن أمها قدمت إلى المدينة في صلح الحديبية وكانت مشركة، وكانت راغبة في أن تُنعم عليها ابنتها بمال، فقال النبي ﷺ: (تصدقي عليها) أو كما روي عنه ﷺ. وهذا يبين كمال شريعة هذا الدين المبارك، ومن ذلك قوله ﷺ لقريش، بل قوله لابنته فاطمة: (لا أغني عنك من الله شيئا) هذا يبين دعوته ﷺ، أنه جاء داعيا إلى الله ﷻ وبشيرا ونذيرا، داعيا إلى توحيد رب العالمين، ومحذرا من عبادة الأوثان والملائكة والأنبياء، فرسول الله ﷺ يقول لابنته فاطمة: (سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا) فكيف بغيره من الأولياء والصالحين، كالحسين وعلي وعبدالقادر الجيلاني، والعيدروس وابن علاوان والبدوي، وغيرهم ممن يدعون في الشدائد، ويطلب منهم المدد وكشف الكربات، إذا كان النبي ﷺ يقول ذلك لابنته فاطمة ولقومه قريش، فكيف بغيره من الأولياء والصالحين، ولهذا قال النبي ﷺ: (سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا).

فيما تقدم أيضا من أساليبهم في محاربة الدعوة، الاتهامات الباطلة لصد الناس عن رسول الله ﷺ وأتباعه، فاتهموه بالجنون، واتهموه بالسحر، واتهموه بالكذب، وهذه السنة الجاهلية، قد شابههم فيها أهل البدع والشرك، فإنهم في زماننا، ينبزون أهل السنة الدعاة إلى توحيد رب العالمين بالأوصاف الشنيعة الكثيرة، فمن ذلك نبزهم لأهل السنة بالوهابية، طعنا ولمزا

وهمزا، ومن ذلك لمزهم لأهل السنة بالحشوية والعامة وغير ذلك من الألفاظ، وكل هذا لا يضر أهل السنة، لأنهم ليس لهم اسم سوى أهل السنة، اتباعا لسنة رسول الله محمد ﷺ.

وفي هذا بشارة أيضا لأهل الإسلام، أن ما تقوم به وسائل الكفر الإعلامية العالمية من الطعن في أهل الإسلام، والطعن في بلاد المسلمين، خاصة في بلاد الحرمين –المملكة العربية السعودية– محاولةً منهم لتشويه صورة هذا الدين في أذهان العالم، هذه بشارة لكم يا أهل الإسلام، بأن الله ﷻ ينصر دينه، ويدافع عنكم إن آمنتم بالله وصدقتم رسوله ﷺ، وحكَّمتم شِرعته، فإن الله ﷻ مظهر دينه، وناصر أوليائه، ولا يضرهم كلام أولئك، قال الله ﷻ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[آل عمران:١١١]، وبشر ربنا ﷻ بإبطال كيدهم فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[التوبة:٣٢].

وفي رفضه ﷺ لتلك المساومات الجاهلية، في هذا تذكير لكم يا أهل الإسلام، ألا تتنازلوا عن شيء من شرائع الدين، إذا طعن فيها أهل الكفر والإلحاد والنفاق، بل اثبتوا على دينكم، وإن كره ذلك من كرهه من أهل الكفر والعناد والنفاق، فإن الله ﷻ سيأيِّدكم، ويُظهر ما عندكم من الحق.

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

الوقفة التاسعة: (إيذاء الكفار للمسلمين):

أما بعد، فيقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ﴾[الأنعام:٣٤]، وقال الله ﷻ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[آل عمران:١٨٦].

نعم، لقد أوذي رسول الله ﷺ، وسمع من الأذى ما سمعه، فصبر ﷺ، حتى أعقبه الله خيرا، يقول ابن إسحاق في سيرته: "حدثني يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدثت أن عتبة بن ربيعة -وكان سيدا- قال يوما وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورا، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه، أو كما قال، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[فصلت:١-٥]، ثم فمضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما

يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي، أني قد سمعت قولا، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب، فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم"، قال العلامة الألباني: "هذه القصة أخرجها ابن إسحاق بسند حسن، عن محمد بن كعب مرسلا، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى، من طريق أخرى من حديث جابر، وسنده حسن إن شاء الله تعالى".

وهذه حادثة أخرى تبين عظيم ما لقاه الرسول ﷺ من الأذى، من فرعون هذه الأمة أبي جهل، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عيانا) رواه أحمد والبخاري. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (مر أبو جهل بالنبي ﷺ وهو يصلي، فقال: ألم أنهك أن تصلي يا محمد، لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديا مني، فانتهره النبي ﷺ، فقال جبريل: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[العلق:١٧-١٨]، والله لو دعا ناديه، لأخذته زبانية العذاب) خرجه الإمامان أحمد والترمذي وصححه الإمام الترمذي.

ولقد هم فرعون هذه الأمة بالتعدي على رسول الله ﷺ، فعصم الله رسوله وأيده بأمر من عنده، فقد روى الإمامان أحمد ومسلم، وكذلك الإمام ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "قال أبو جهل: هل يُعَفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يصلي كذلك، لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له: مالك؟ قال: إن بيني وبينه خندقا من نار، وهولا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا".

وههو ابن مسعود أحد السابقين الأولين يحدث بما جرى لرسول الله ﷺ، من أذى قريش وصبره وتحمله في ذات الله ﷻ، يقول: "ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم

واحد، فإنه كان يصلي، ورهط من قريش جلوس، وسلا جزور قريب منه –والسلا: هو الذي يخرج مع ولد الناقة كالمشيمة لولد المرأة– فقالوا: من يأخذ هذا السلا فيلقيه على ظهره؟ فقال عقبة بن أبي معيط: أنا، فأخذه، فألقاه على ظهره ﷺ، فضحكوا حتى جعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك، فلم يزل رسول الله ﷺ ساجدا حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره، فقال رسول الله ﷺ: اللهم عليك بهذا الملأ من قريش، اللهم عليك بعتبة بن ربيعة، اللهم عليك بشيبة بن ربيعة، اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، اللهم عليك بعقبة بن أبي معيط، اللهم عليك بأمية بن خلف، قال ابن مسعود رضي الله عنه: فلما رأوا ذلك سكت عنهم الضحك، وخافوا دعوته، قال ابن مسعود: فلقد رأيتهم قتلى يوم بدر جميعا، ثم سحبوا إلى القليب غير أمية بن خلف، فإنه كان رجلا ضخما فتقطع" واستجاب الله دعوة رسوله محمد ﷺ.

يقول عروة بن الزبير: "سألت عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ فقال: "بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[غافر:٢٨] خرجه الإمام البخاري.

يقول عبدالله بن عمرو: "لقد رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثلما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، ووجدنا منه أمرا عظيما، فبينما هم في ذلك، إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفا بالبيت، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فمضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفتها في وجهه ﷺ فمضى، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال ﷺ: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس بيده، لقد جئتكم بالذبح، فأخذت القومَ كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وُصاة قبل ذلك، ليَرْفَؤُه –أي: يسكنه– بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشدا فما كنت بجهول، فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم على ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا

وكذا، لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: نعم، أنا الذي أقول ذلك، ولقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجامع ردائه ﷺ، وقام أبو بكر الصديق يبكي دونه ويقول: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[غافر:٢٨] ثم انصرفوا عنه ﷺ، فإن ذلك لأكثر ما رأيت قريشا بلغت منه قط" رواه الإمام البيهقي، وهو في صحيح السيرة للعلامة الألباني.

وكان النبي الخاتم محمد ﷺ يذكر نعمة الله عليه، ويحدث بما لقيه من أذى قريش، فأنجاه الله ﷻ منهم، يقول أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: (لقد أُوذيت في الله وما يؤذى أحد، وأُخفت في الله وما يخاف أحد) أخرجه الإمام الترمذي وقال: "حسن صحيح".

وتسلطت قريش أيضا على أتباع رسول الله ﷺ، فآذوهم أشد الإيذاء، يقول خباب بن الأرت: أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو لنا؟ فقعد ﷺ وهو محمر وجهه فقال: (قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مَفْرِق رأسه فيُشق باثنتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون) خرجه الإمام البخاري.

ولما خشي أبو طالب دهماء العرب أن يغلبوه ويتسلطوا على بني عمه، قال قصيدته اللامية المشهورة، التي أعلن فيها دفاعه عن رسول الله ﷺ، وأنه غير تاركه لشيء حتى يهلك دونه، ويذم فيها من تمالأ عليه من قريش، ومن ذلك قوله:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا***عقوبةَ شر عاجلا غير آجل
لعمري لقد كلفت وَجْدا بأحمدٍ***وإخوته دأب المحب المواصل
فمن مثله في الناس أي مؤملٍ***إذا قاسه الحكام عند التفاضل؟
حليم رشيد عادل غير طائش***يوالي إلها ليس عنه بغافل
وأيده رب العباد بنصره***وأظهر دينا حقه غير زائل
فوالله لولا أن أجيء بسُبة***تُجر على أشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة***من الدهر جدا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مُكَذب***لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
حَدِبت بنفسي دونه وحميته***ودافعت عنه بالذُرى والكلاكل

ومع ذلك كله لم يسلم أبو طالب، واستكبر عن اتباع الحق تقليدا للأشياخ، وقال عند موته ورسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، قال: "هو على ملة عبدالمطلب" ومات مشركا خالدا مخلدا في نار جهنم نعوذ بالله منها، وهذا من عجيب صنع الله ﷻ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦]، صدق رسول الله ﷺ حين قال: (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر).

معاشر المؤمنين، فيما تقدم من سيرته ﷺ فوائد:

من ذلك: بيان شجاعته ﷺ، فإن كفار قريش لما اجتمعوا عليه وقالوا: "أنت الذي تقول في آلهتنا وفينا كذا وكذا، قال ﷺ في شجاعة وقوة: نعم أنا الذي أقول ذلك".

ومن ذلك: بيان أن الصراع بين الحق والباطل، وإيذاء الكفرة للمؤمنين سنة ماضية، فليصبر أهل الإسلام على ما يسمعونه اليوم من أذى الكافرين، في وسائل الإعلام وغيرها، وطعنهم في هذا الدين الإسلامي وفي أهله، وفي الدول التي تحكم شريعته، فلا يخفى عليكم معاشر المؤمنين، أن أهل الكفر في إعلامهم قد تسلطوا على أهل الإسلام، يحاولون استغلال كل حدث للطعن في هذا الدين، والدين الإسلامي بريء من أفعال من ينتسبون إليه ويخالفونه، فدين الله ﷻ، دين العدل ودين الحق ونصرة المظلوم، وليس هو دين الظلم والغدر والتعدي على عباد الله بدون حق، فدين الله ﷻ بريء من هذه الدعايات الباطلة، فلا يضركم ذلك شيئا، واصبروا واثبتوا على ما أنتم عليه من الحق، واعلموا أن كلامهم هذا لن يضركم شيئا، كما قال الله ﷻ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[آل عمران:١١١]، إنما هو أذى باللسان، فإذا صبر أهل الإسلام على دينهم، وعلى تعاليم شريعتهم، فإن الله ﷻ يجعل العاقبة لهم.

وفيما تقدم: بيان شيء من أخلاق الدعاة إلى الله ﷻ، ومن ذلك الصبر على أذى الناس، فلا يحملهم ما يلاقونه من أذى على الانتقام للنفس أو تعدي حدود الله ﷻ، فما يفعله بعض الناس اليوم من التخريب والتأليب وإثارة الفتنة، كل ذلك ضلال مبين، وخلاف للنصوص والآثار، وليس هذا من خلق الدعاة الصالحين، وإن سموا هذا إصلاحا وجعلوا له قنوات ومواقع في الإنترنت، فإنه والله إفساد، الواجب النصح والدعوة إلى الله ﷻ بالحكمة

والموعظة، والحرص على جمع كلمة المسلمين، وسد أبواب الفتنة، وعدم الالتفات إلى حظوظ النفس، وإن أوذي العبد أو ناله ما ناله.

ومن فوائدها: أنه لا يؤذن بالجهاد في كل حال، فأنتم ترون كيف كان يؤذى رسول الله ﷺ في مكة، وكيف كان يؤذى أصحابه أعظم الأذى، وكفار قريش قد تسلطوا على بيت الله الحرام، ونصبوا حوله ثلاثمائة وستين صنما، ومع ذلك يلاقي النبي ﷺ ما يلاقيه من الأذى، ويوضع سلا الجزور على ظهره، فيكتفي ﷺ بدعاء ربه واللجوء إليه، وقد قال عبدالله بن مسعود الذي حدث بهذه الحادثة يقول: "وأنا أنظر إلى رسول الله ﷺ، وهم يضعون سلا الجزور على ظهره، لو كان لي منعة لدفعته عن رسول الله ﷺ"، فانظروا كيف أن هذا الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود يرى رسول الله ﷺ يؤذى، ومع ذلك لم يتمكن من نصرته ﷺ. فما يزعمه بعض الناس، من إلزام المسلمين بنصرة إخوانهم المستضعفين في كل حال، ولو لم يكن بنا قوة على نصرتهم، هذا الزعم باطل، فضلا عن مخالفته للنصوص الشرعية في بعض الأحوال، لقول الله ﷻ: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾[الأنفال:٧٢]، فإذا كان بيننا وبين أولئك الكفرة، الذين يقاتلون إخواننا المستضعفين عهد وميثاق، فالواجب أن نفي لهم بعهدهم وألا نغدر بهم، كما فعل رسول الله ﷺ يوم الحديبية، لما صالح كفار قريش، فهرب من هرب من المؤمنين إلى سيف البحر، أبو بصير وأبو جندل وغيرهما من المؤمنين، فكانوا يقاتلون كفار قريش، فلم ينصرهم رسول الله ﷺ، بل إن بعضهم لما قدم إلى المدينة إلى رسول الله ﷺ فارًّا بدينه، ومن أذية وعذاب كفار قريش، رده رسول الله ﷺ إليهم وفاءً بالعهد، لأنه عاهدهم ﷺ وهو الوفي بالعهد، أن من جاءه من مكة مسلما يرده إلى كفار قريش.

ومن فوائدها: الحذر من دعوة المظلوم، فإن كفار قريش لما رأوا رسول الله ﷺ يدعو عليهم خافوا، لأنهم يعلمون فيما تلقوه من أخبار الأمم قبلهم أن دعوة المظلوم مستجابة، وفي رواية: أنهم كانوا يرون أن الدعاء عند بيت الله الحرام مستجاب، فخافوا من دعوته ﷺ، وقد سمعتم كيف استجاب الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ، فقتل أولئك النفر يوم بدر.

ومن ذلك: أن الله ﷻ يؤيد دينه بما يشاء وبمن يشاء، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) وفي قصة أبي طالب عبرة.

ومن ذلك: حماية الله لنبيه ﷺ من كفار قريش، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾[المائدة:٦٧]، وهم كانوا يبغضون رسول الله ﷺ أشد البغض، وودوا لو قتلوه، بل قد تمالؤوا على ذلك في آخر الأمر، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[الأنفال:٣٠]، ولما خرج ﷺ من مكة مهاجرا، لحقوا به ﷺ يبحثون عنه، وقد جعلوا لمن يأتي به حيا أو ميتا مائة من الإبل، وجاؤوا إلى باب الغار الذي كان فيه النبي ﷺ وصاحبه الصديق أبو بكر، فأعمى الله أبصارهم، وحمى رسوله ﷺ، كما قال ربنا ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾[التوبة:٤٠]، وبقدر إيمانك ومتابعتك لرسول الله ﷺ، فإن الله ﷻ يدافع عنك، وينصرك على من تسلط عليك، وبقدر إيمان الأمة، وتحكيمها لكتاب الله وسنة رسولها محمد ﷺ، فإن الله ينصرها ويؤيدها على أعدائها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[الحج:٣٨].

ومن فوائدها: البشارة للأمة بكشف الغمة والتمكين في الأرض، فههو خباب بن الأرت رضي الله عنه يأتي إلى النبي ﷺ أيام الاستضعاف وأذى المشركين وتسلطهم، فيقول: "يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ فبشره النبي ﷺ وقال: والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه"، وأنتم يا أمة الإسلام، أبشروا بتمكين الله ﷻ، إن تمسكتم بكتابه وسنة رسوله محمد ﷺ.

ومن فوائدها: فضل أبي بكر الصديق، في دفاعه عن رسول الله ﷺ، لما تمالأ عليه الملأ من قريش ليؤذوه، فجاء يبكي ويدافع عن رسول الله ﷺ، ويعلن إيمانه ودفاعه عن النبي ﷺ غير خائف ولا وجل ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾[غافر:٢٨]، فهو رضي الله عنه قد قام ووقف مواقف عظيمة في نصرة رسول الله ﷺ، حتى قال النبي ﷺ في آخر حياته: (ما من أحد له يد إلا وقد جزيته عليها، إلا أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه)، ولما حضرته الوفاة واقترب أجله ﷺ، أمر أن يصلي بالناس أبو بكر الصديق، وقال ﷺ: (إن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا).

اللهم صل وسلم وبارك على نبينا محمد، وارض عن صحابته أجمعين.

الوقفة العاشرة: (الهجرة إلى الحبشة):

أما بعد: فيقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١٠٠]، ويقول ربنا ﷻ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾[العنكبوت:٥٦]، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره المبارك: "هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، ووجدوا خير المترلين هناك، أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى، فآواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سيومًا ببلاده" والسيوم: الآمنون.

ولقد وعد الله في كتابه هؤلاء المهاجرين بالأجر العظيم، والنعيم المقيم، قال الله ﷻ: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾[آل عمران:١٩٥].

معاشر المؤمنين، لقد تقدم ذكر أذية المشركين للمستضعفين من المؤمنين بمكة، وما كانوا يعاملونهم به من الضرب الشديد، والتنكيل والإهانة البالغة، وكان الله قد حجزهم عن رسوله محمد ﷺ في عمه أبي طالب، قال الإمام محمد بن إسحاق في سيرته المشهورة: "لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ﷻ، ومن عمه أبي طالب، وأنه عليه الصلاة والسلام لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه)، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الاسلام.

فكان أول من خرج من المسلمين: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، قال: وأبو حذيفة بن عتبة، وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو، وولدت له في الحبشة محمد بن أبي حذيفة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبدالأسد وامرأته أم سلمة، وولدت له في الحبشة زينب، وعثمان بن مضعون، وعامر بن

ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حَثْمة، وأبو سفرة بن أبي رهم العامري وامرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، وسهيل بن بيضاء.

فهؤلاء العشرة هم أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة فيما بلغني، ثم خرج جعفر بن أبي طالب ومعه امرأته أسماء بنت عميس، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين، ثلاثة وثمانين رجلاً، إن كان عمار بن ياسر فيهم وهو يُشك فيه" انتهى كلام ابن اسحاق غفر الله له.

وههي إحدى المهاجرات أم سلمة أم المؤمنين ﵂، تروى قصة ذلك الركب المبارك، وتصف حال المؤمنين والمؤمنات في سنوات الغربة والكربة تلك، تقول وهي ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى: "لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ، وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان عليه الصلاة والسلام في مَنَعَة في قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه، قالت أم سلمة: فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فترلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا ولم نخش فيها ظلمًا، فلما رأت قريش أنا قد أصبنا دارًا وأمنًا، اجتمعوا على أن يبعثوا إلى النجاشي فينا ليخرجونا من بلاده وليردنا عليهم، وبعثوا عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقته، فلم يدعوا منهم رجلاً إلا هيئوا له هدية على حدة، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تتكلموا فيهم، ثم ادفعوا إليهم هداياه، فإن استطعتم أن يردهم عليكم قبل أن يكلمهم فافعلوا، فقدما عليه، فلم يبقَ بطريق من بطارقته إلا قدّموا إليه هديته وكلموه وقالوا له: إنما قدمنا على هذا الملك في سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم ولم يدخلوا في دينكم، فبعثَنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه فأشيروا عليه بأن يفعل، فقالوا: نفعل، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، فكان من أحب ما يهدونه من مكة الأُدم —أي: الجلود— فلما أدخلوا عليه هداياه قالوا له: أيها الملك، إن فتية منا سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجائوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجئوا إلى بلادك، وقد بعثَنا إليك فيهم عشائرهم، آباؤهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فإنهم أعلى بهم عينًا —أي: أبصر بهم—، فقالت بطارقته: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم كانوا هم أعلى بهم عينًا، فإنهم لن يدخلوا في دينك فتمنعهم من ذلك، فغضب النجاشي ثم قال: لا لعمر الله، لا

أردهم عليهم حتى أدعوهم فأكلمهم وأنظر ما أمرهم، قوم لجئوا إلى بلادي واختاروا جواري على جوار غيري، فإنْ كانوا كما يقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم، وأحسنت جوارهم ما جاوروني، قال: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما نحن به من أمر ديننا، وما أمرنا به نبينا محمد ﷺ، كائنًا في ذلك ما هو كائن، فقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: لا يتكلم منكم أحد، أنا خطيبكم اليوم، فلما جائوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله –أي: نسخ الإنجيل– فدخلوا عليه وهو جالس وعمرو بن العاص عن يمينه والآخر عن يساره، وكان من دخل عليه يسجد له، فقال عمرو وصاحبه: إنهم لا يسجدون لك أيها الملك، فلما انتهى الصحابة إلى النجاشي، انتهرهم القسيسون والرهبان وقالوا: اسجدوا للملك، فقال جعفر: لا نسجد إلا لله ﷻ، فسلم ولم يسجد، فقال النجاشي: ما منعك أن تسجد؟ قال جعفر: إنا لا نسجد إلا لله ﷻ، قالت أم سلمة: فسألهم ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل يهودية ولا نصرانية؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر، فقال: أيها الملك، كنا أهل جاهلية على الشرك نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، ولا نُحل شيئًا ولا نحرمه، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه ووفاءه، فهو الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم من بعده اسمه أحمد، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئًا، وأن لا نسجد لأحد إلا لله ﷻ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر، وعدد عليه أمور الإسلام، فآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله ﷻ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئًا، فحرَّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك،

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال جعفر: نعم، قال النجاشي: فاقرأه علي فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم، فأعجب النجاشيَ قوله، قالت: فبكى والله النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكت أساقفته حتى ابتلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي لهم: إن هذا والذي جاء به عيسى وموسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقوا راشدين، ثم قال لعمر بن العاص وصاحبه: انطلقا، فوالله لا أسلِّمهم إليكم أبدًا ولا يُكادون ولا أنعمكم عينًا، قالت: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنهم غدًا عيبهم عنده، والله لآتينه غدًا بما أستأصل به خضراءهم، والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد عيسى بن مريم عبد، قالت: فقال عبدالله بن أبي ربيعة -وكان أتقى الرجلين فينا-: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا ولهم حقًّا وإن كانوا قد خالفونا، فقال عمرو: والله لأفعلن، ثم غدا على النجاشي من الغد وقال له: أصلح الله الملك، إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم، أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيمًا فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه، قالت أم سلمة: فأرسل إلينا ليسألنا عنه ولم يترل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله فيه، وما جاءنا به نبينا ﷺ وأمرنا أن نقول فيه، كائنًا في ذلك ما هو كائن، قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم وأمه؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه -أي: الروح التي خلقها- وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، التي لم يمسها بشر، قالت: فضرب النجاشي بيده الأرض، فأخذ منها عودًا بين أصبعيه ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العويد -أي: قد جاء بمثل قولك لم يعده-، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال النجاشي: وإن تناخرتم والله، ثم قال لجعفر وأصحابه: مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك، لأتيته حتى أكون أنا الذي يحمل قدميه، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي -والشيوم: الآمنون- من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنّي آذيت رجلاً منكم، ثم قال لمن عنده: ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، واخرجا من بلادي، يقوله لعمرٍ وصاحبه رسولي قريش، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع اللهُ الناسَ فيَّ فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا بخير دار

مع خير جوار، قال أبو موسى: وأمر لنا النجاشي بطعام وكسوة، قالت أم سلمة: فوالله إنا لعلى ذلك إذ نزل بالنجاشي رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، ووالله ما علمتُنا حزنًا حزنًا قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك، فخوفًا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه، فجعلنا ندعو الله ونستنصره للنجاشي، وسار النجاشي إليه وبينهما عُرض النيل، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم –أي: المعركة– ثم يأتينا بالخبر؟ فقال الزبير بن العوام: أنا، وكان من أحدث الناس سنًّا، فنفخوا له قِربة فجعلوها في صدره ثم سَبَح عليها، حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: فدعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده، فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن، إذ طلع الزبير بن العوام وهو يسعى، فلَمَع بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا، فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه، ومكن الله له في بلاده، فهزم الله ذلك الملك وقتله، قالت أم سلمة: فوالله ما علمتُنا فرحنا فرحة قط مثلها، وأسلم النجاشي، وكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ".

معاشر المؤمنين، ممن روى حادثة الهجرة إلى الحبشة: خطيب المهاجرين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وروايته عزيزة جدًا كما قال الحافظ ابن كثير، رواها ابن عساكر ثم قال: "حسن غريب"، حدث جعفر بنحو ما مضى ثم قال: "فلما هاجر رسول الله عليه وسلم إلى المدينة وظهر بها، قلنا للنجاشي: إن رسول الله ﷺ قد ظهر وهاجر إلى المدينة، وقُتل الذين كُنا حدثناك عنهم –يعني: صناديد قريش– وقد أردنا الرحيل إليه فزودنا، قال النجاشي: نعم، فحملنا وزودنا ثم قال: أخبر صاحبك ﷺ بما صنعت إليكم، وهذا صاحبي معكم، أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله، وقل له يستغفر لي، قال جعفر: فخرجنا حتى أتينا المدينة، فتلقاني رسول الله ﷺ واعتنقني ثم قال: ما أدري أنا بفتح خيبر أفرح أم بقدوم جعفر؟ ووافق ذلك –أي: قدومهم– فتح خيبر ثم جلس، فقال رسول النجاشي: هذا جعفر فسله ما صنع به صاحب النجاشي؟ فقال: نعم، فعل بنا كذا وكذا وحملنا وزودنا، وشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وقال لي: قل له يستغفر لي، فقام رسول الله ﷺ فتوضأ ثم دعا ثلاث مرات: اللهم اغفر للنجاشي، اللهم اغفر للنجاشي، اللهم اغفر للنجاشي، فقال المسلمون: آمين، ثم قال جعفر لرسول النجاشي: انطلق فأخبر صاحبك بما رأيت من رسول الله ﷺ".

في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: (بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي في الحبشة، ووافقنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فأقمنا معه حتى قدمنا، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فقال عليه الصلاة والسلام: لكم أنتم أهل السفينة هجرتان، لكم أنتم أهل السفينة هجرتان). وثبت في الصحيح: (أنه عليه الصلاة والسلام نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وقال: مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة، فخرج بهم إلى المصلى، وصفّ بهم وكبر أربع تكبيرات). قال الحافظ بن كثير: "وهو أصحمة بن أبْجر، وكان عبدًا صالحًا لبيبًا ذكيًا عادلاً عالــمًا رضي الله عنه وأرضاه، يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[القصص:٥٢-٥٤].

قد قال الحافظ العراقي في ألفية السيرة في الهجرتين إلى الحبشة:

لما فشا الإسلام واشتد على***من أسلم البلاء هاجروا إلى
أصحمة في رجب من سنةِ***خمس مضت لهم من النبوةِ
خمس من النساء واثنا عشرَ***من الرجال كلهم قد هاجرَ
عثمانُ معْ زوجته رقية***أسبقهم للهجرة المرضية
مصعب والزبير وابن عوفِ***وحاطب فأمِنوا من خوفِ
كذا ابنُ مضعونَ بن مسعود أبو***سلمة وزوجه تصاحبوا
أبو حذيفة أبوه عتبة***وزوجه بنت سهيل سهلة
وابن عمير هاشم وعامرُ***بن ربيعة الحليف الناصر
وزوجه ليلى أبو سبْرة معْ***زوجته أيّ أم كلثومٍ جُمعْ
وخرجت قريشُ في الآثارِ***لم يصلوا منهم لأخذ الثارِ
فجاوروه في أتم حالي**ثم أتوا مكة في شوالِ
من عامهم إذْ قيل أهل مكةِ***قد أسلموا و لم يكنْ بالثبتِ
فاستقبلوهم بالأذى والشدةِ***فرجعوا للهجرة الثانية
في مئة عدُّ الرجال منهمو***اثنان من بعد الثمانين همو
فنزلوا عند النجاشي على***أتمِّ حالٍ وتغيظَ الملا.

يعني: الملأ من صناديد قريش صاروا في غيض لما أنجى الله المؤمنين فلم يردهم النجاشي إليهم.

أما بعد، فيقول الله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[الأنفال:٢٦].

معاشر المؤمنين، قد بقي من أخبار المهاجرين إلى الحبشة بقية، وفوائد جليلة مرضية، كان ممن عزم على الهجرة إلى الحبشة: الصديق أبو بكر رضي الله عنه، فعند البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "لما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا إلى أرض الحبشة، حتى إذا بلغ بَرْك الغِماد لقيه ابن الدَّغِنة وهو سيد القارَة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي، فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج مثله، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع فاعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة وطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، وليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنّا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدًا بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك، فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نُخْفِرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله ﷻ".

ومن فوائد حادثة الهجرة: بيان فضيلة أصحاب الهجرتين، فعند البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: "بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رُهم، إما قال في بضع، وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومه، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فكان أناس من الناس يقولون لنا –يعني: لأهل السفينة القادمين من الحبشـــة–: سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس وهي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة وأسماء بنت عميس عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه، البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت أسماء وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ، يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دارٍ أو أرضِ البُعداء والبغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسول الله ﷺ، والله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا، حتى أذكر ما قلت للنبي ﷺ وأسأله، فوالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه، فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله، إن عمر بن الخطاب قال كذا وكذا، قال ﷺ: فما قلتِ له، قالت: قلتُ كذا وكذا، فقال ﷺ: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان، قالت: فلقد رأيتُ أبي موسى الأشعري وأصحاب السفينة، يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال النبي ﷺ، قالت: فلقد رأيتُ أبا موسى الأشعري، وإنه ليستعيد هذا الحديث مني".

ولما قدم المهاجرون في السنة السابعة من الهجرة، بعد غياب ما يقرب من أربعة عشر عامًا بالحبشة، أكرمهم النبي ﷺ وعرف لهم فضلهم، يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: "قدمنا على النبي ﷺ بعد أن افتتح خيبر، فقسم لنا –يعني: من الغنيمة– ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا" أخرجه البخاري، قال ابن إسحاق: "وكان الذين تأخروا مع جعفر من أهل مكة إلى أن قدموا معه خيبر ستة عشر رجلاً، وسرد أسماءهم وأسماء نسائهم ﷺ أجمعين.

ومن الفوائد: بيان فضيلة جعفر بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، فهو خطيب المهاجرين، وابن عم رسول الله ﷺ، قال الحافظ ابن كثير: "أسلم جعفر قديمًا، وهاجر إلى

الحبشة، وكانت له هناك مواقف مشهورة، ومقامات محمودة، وأجوبة سديدة، وأحوال رشيدة، وقد قدم على النبي ﷺ يوم خيبر، فقال عليه اصلاة والسلام: (ما أدري بأيهما أنا أسر، أبقدوم جعفر، أم بفتح خيبر؟ فقام إليه واعتنقه وقبله بين عينيه، وقال له يوم خرجوا من عمرة القضية: أشبهت خَلْقي وخلقي، ولما بعثه إلى مؤتة، جعله في الإمرة تاليًا لزيد بن حارثة، فلما قتل رضي الله عنه وجدوا فيه بضعًا وتسعين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، وهو في ذلك كله مقبل غير مدبر، وكانت قد قُطعت يده اليمنى ثم اليسرى وهو ممسك اللواء، ولما فقدهما احتضنه حتى قتل وهو كذلك، وقد أخبر النبي ﷺ بأنه شهيد، فهو ممن يقطع له بالجنة، وجاء في الأحاديث تسميته بذي الجناحين، وروى البخاري عن ابن عمر: "أنه كان إذا سلم على ابنه عبدالله بن جعفر يقول: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين" قالوا: لأن الله عوضه عن يديه بجناحين في الجنة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (رأيت جعفرًا يطير في الجنة مع الملائكة) خرجه الترمذي. وقد كان يقال لجعفر بعدما قُتل الطيار لما ذكرنا، وكان كريمًا جوادًا ممدحًا، وكان لكرمه يقال له في حياته أبو المساكين لإحسانه إليهم، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (كان خير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب، وكان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليُخرج إلينا العُكَّة التي ليس فيها شيء، فنشقها فنلعق ما فيها" انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

ولقد حزن نبيكم وبكى لما بلغه مقتل جعفر وأصحابه، تقول عائشة ﵂: "إن رسول الله ﷺ، نعى زيدًا وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يأتيه خبرهم فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحه فأصيب، قالت: وعيناه ﷺ تذرفان، تقول أسماء بنت عميس زوجة جعفر –وكانت قد هاجرت معه إلى الحبشة– تقول: لما أصيب جعفر وأصحابه –أي: قتلوا– دخل علي رسول الله ﷺ، وقد دبرت أربعين منًّا، وعجنت عجيني وغسَّلت بني ودهَّنتهم ونظَّفتهم قالت: فقال رسول الله ﷺ: ايتيني ببني جعفر، فأتيته بهم، فشمهم وذرفت عيناه ﷺ، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم، أصيبوا اليوم –أي: قتلوا– قالت: فقمت أصيح، واجتمع إليَّ النساء، فخرج رسول الله ﷺ فقال: لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعامًا، فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم" رواه ابن إسحاق وأحمد وابن ماجه.

ومن الفوائد: أن الهجرة للحبشة تكررت، ليعظم أمر المهاجرين، فقد هاجر الصحابة للحبشة الهجرة الأولى ثم عادوا لمكة، ثم هاجروا ثانية، وكان ذلك لخبرٍ غير موثوق، قال الحافظ ابن كثير: "ذكر ابن إسحاق من عاد من مهاجرة الحبشة إلى مكه –يعني: من هاجروا الهجرة الأولى– وذلك حين بلغهم إسلام أهل مكة، وكان النقل ليس بصحيح، ولكن كان له سبب وهو ما ثبت في الصحيح وغيره: "أن رسول الله ﷺ جلس يومًا مع المشركين، وأنزل الله عليه: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾[النجم:١–٢] يقرؤها عليهم حتى ختمها، فسجد من هناك من المسلمين والمشركين والجن والإنس"، وعن عبدالله قال: "قرأ النبي ﷺ النجم بمكة، فسجد فيها وسجد من معه، غير شيخ أخذ كفًّا من حصى أو تراب، فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا، قال عبدالله: فرأيته بعد قتل كافرًا، والمقصود أن الناقل لما رأى المشركين قد سجدوا متابعة لرسول الله ﷺ، اعتقد أنهم قد أسلموا واصطلحوا معه، ولم يبقَ نزاع بينهم، فطار الخبر بذلك، وانتشر حتى بلغ مهاجرة الحبشة بها، فظنوا صحة ذلك، فأقبل منهم طائفة طامعين بذلك، فثبت جماعة وكلاهما محسن ومصيب فيما فعل" انتهى كلامه. وعلم منه: التثبت في نقل الأخبار وقبولها.

ومن الفوائد: أن الله قد يبتلي العبد بالضراء، ثم يكون ذلك سببًا لخير عظيم وعاقبة حسنة، من المهاجرات إلى الحبشة: أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، لقيت من الجهد والبلاء ما الله به عليم، وأعقبها الله خيرًا، فتزوجت رسول الله ﷺ، فصارت من أمهات المؤمنين، روى البيهقي في دلائل النبوة بسنده: "عن أم حبيبة أنها كانت عند عبيدالله بن جحش، وكان رحل إلى الحبشة فمات، وأن رسول الله ﷺ تزوجها وهي بأرض الحبشة، وزوجها إياه النجاشي رحمه الله، ومهرها أربعة آلاف درهم، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة، وجهزها من عنده"، قال الحافظ ابن كثير: "وكان وكيل رسول الله ﷺ في قبول العقد أصحمة النجاشي، ملك الحبشة رحمه الله"، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾[الممتحنة:٧] قال: "هو تزويج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أم المؤمنين، وصار معاوية رضي الله عنه خال المؤمنين".

ومن الفوائد: حرص الصحابة بعد الرجوع من الحبشة على تعلم ما فاتهم، فلم يتكلوا على ما سبق من العمل، لما رجع الصحابة من الحبشة تعلموا ما نزل من القرآن وقت غيبتهم، يقول عبدالله بن مسعود: "كنا نسلم على النبي ﷺ وهو يصلي فيرد علينا، فلما

رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله، إنا كنا نسلم عليك فترد علينا؟ قال ﷺ: (إن في الصلاة شغلاً) خرجه البخاري.

ومن فوائد هذه الهجرة المباركة: بيان حرص الصحابة ﷺ على التوحيد، وحذرهم من الشرك ووسائله، إن الصحابة ﷺ كانوا يحدثون رسول الله ﷺ بما أحدث النصارى في دينهم، وبما أنكروه من أفعالهم، وكان ﷺ ينصت لحديثهم ويستمع، ثم يبين حكم الله ﷻ، ففي الصحيحين من حديث عائشة ﵂: "أن أم حبيبة وأم سلمة ﵄ ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسة رأتاها في الحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال: إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)، ومن العجب أن بعض المسلمين، وقعوا فيما أنكره الصحابة المهاجرون، ولعن الرسول ﷺ فاعله، فبنو المساجد على قبور الأولياء والصالحين وآل بيت رسول الله ﷺ، وبنو القباب على تلك القبور وسموها مشاهد وأضرحة ومقامات، وتمسحوا بها ولجؤوا إليها، وطلبوا منها المدد وكشف الكربات، واستشفوا بتربة فلان وفلان، وقالوا إفكًا وزورًا: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور، واجتمعوا في يوم مولد ذلك الولي لإحيائه بالأناشيد والأهازيج وضرب الدفوف ورقص الصوفية الضلال وتمايلهم تواجدًا زعموا، ويرون أن الدعاء مستجاب عند تلك الأضرحة والمشاهد، فعمروا تلك القبور والمشاهد، وهجروا المساجد، وجعلوا لتلك القبور سدنة وأوقافًا، وعلقوا عليها الستور، وجملوها بالذهب والفضة، ويزعمون أن ذلك تعظيم وتوقير ومحبة للصالحين، انظروا إلى شرق العالم الإسلامي وغربه، قبة على قبر العيدروس، الذي يزعمون أنه يحيي النفوس، أعوذ بالله من الضلال، وقبة على قبر الجيلاني، وقبة على قبر البدوي، وقبة على قبر ابن علوان، وقبة على قبر زينب، وقبة على قبر علي، وقبة على قبر الحسين، وقباب على قبور يزعمون أنها قبور الأنبياء، كأيوب ويوسف ويحيى وغيرهم، وهذا الزعم باطل، ثم بعد ذلك يرجون النصر على اليهود والنصارى وإخراجهم من بلاد المسلمين! كيف تنصرون عليهم وقد شابهتموهم في الإشراك بالله، وعبادة القبور واتخاذها مساجد؟ فأين ذُهب بعقولكم حتى وقعتم فيما أنكره المهاجرون إلى الحبشة؟ يا قومِ كيف خفيت عليكم سنة رسول الله ﷺ في ذلك؟ ألا فاتقوا الله ولا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور، احذروا دعاة الضلالة، الدعاة على أبواب جهنم، أصحاب الطرق الصوفية القبورية المبتدعة، من نقشبندية خالدية وتيجانية وقادرية وجشتية ودسوقية ورفاعية، هؤلاء هم سدنة القبور، إذا رأوا من ينصحكم

ويعظكم كذبوا وقالوا: لا تسمعوا له، هذا لا يحب الرسول والأولياء، هذا لا يعترف بكرامات الأولياء، هذا وهابي جاء بدين جديد، إلى غير ذلك من أكاذيبهم، ألا فأنصتوا لأحاديث رسول الله ﷺ في هذه الفئة الضالة.

مما خرجه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما الذين هما أصح الكتب بعد كتاب الله ﷻ:

الحديث الأول: حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "إن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قالت: ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا".

الثاني: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (قاتل الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

الثالث: حديث عائشة وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم قالا: "لما نُزل برسول الله ﷺ، طَفِق يطرح قميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا، فالرسول ﷺ يحذر ما صنعوا، وأنتم تفعلون كما فعلوا.

إن كنتم تحبون رسول الله ﷺ فأطيعوه ولا تعصوه، يا قومِ ليس معكم أحد من أهل الدين، من أهل العلم الذين شهدت لهم الأمة بالإمامة، فالأئمة كلهم يعملون بالسنة، وأنتم معاشر القبوريين تخالفونها، ههو الإمام العالم شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية يحكي إجماع المسلمين على ذلك يقول: "أما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة علماء الطوائف بالنهي عنه، متابعة للأحاديث الصحيحة، فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم، يتعين إزالتها بهدم أو غيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء المعروفين" انتهى كلامه. وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: "يجب هدم القباب التي على القبور لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ"، وجزم العلامة النووي في شرح المهذب بتحريم البناء على القبور مطلقًا.

معاشر المؤمنين، من فوائد حادثة الهجرة: التضحية بالمال والوطن والنفس في سبيل الدين، والصبر على ملاقاة الصعاب في ذلك، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم حين فارقوا الأهل والوطن والمال، وهاجروا إلى بلاد البعداء والبغضاء في الله ﷻ، وفرارًا من الفتنة بالدين.

ومن الفوائد: جواز الاستعانة بغير المسلمين عند الضرورة، فالمهاجرون استعانوا بالنجاشي في حمايتهم من أذى قريش، وكان نصرانيًا ثم أسلم بعد ذلك، ومن عاد من الصحابة لمكة دخل في جوارٍ وحماية من بعض المشركين، فعند الضرورة لا حرج في ذلك، ولقد أفتى علماؤنا كهيئة كبار العلماء بجواز الاستعانة بالقوات الأجنبية لرد العدوان عن بلادنا، ونصرة إخواننا في بعض البلدان المجاورة، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق، فنفع الله بتلك الفتوى، ورد الله الظالم، وكفى الله بلادنا شر الأشرار وكيد الفجار، والعجب أن بعض الناس ينتقد فتوى هيئة كبار العلماء، المبنية على الدليل، ثم تراه بعد حين يستعين بعباد الصليب، فيلجأ إلى بلادهم، ويحتمي بجوارهم، لِبَثِّ أكاذيبه السَمِجَة، وفاكساته المزورة، وقنواته التي يدعي فيها الإصلاح، والأمر كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة:١٢]، فأي صفقة خاسرة فازوا بها، تركوا بلاد الحرمين بلاد التوحيد والسنة، وتحكيم شرع الله، والراحة والطمأنينة في عبادة المسلم لربه، تركوا ذلك إلى بلاد الكفر والإباحية، لا لشيء، إنما هو الطاعة للشيطان، والميل لفكر الخوارج الثوريين، أيُّ إصلاح سيجلبه لنا من يعيش في أكناف الكفرة قد زهد في بلاد المسلمين؟ وإصلاحُه المزعوم لا يخرج عن أحد أمرين: إما الكذب وإما التحريض على الفتنة، والخروج على ولاة الأمر، وإثارة البلبلة، هذه برامجهم الإصلاحية.

ومن عجائب هؤلاء: أنهم يهتمون بعباد الصليب، ويستعينون بهم للإفساد في بلاد المسلمين، بدعوى الإصلاح زعموا، ثم بعد ذلك يتهموننا بموالاة الكفار، أما الآن بحمد الله ﷻ، فقد ظهر للناس ضرر هؤلاء المهاجرين، لبث الأكاذيب والأراجيف، فماتت بحمد الله فتنتهم، وكبتهم الله ﷻ، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيرا.

وطائفة أخرى تزعم الهجرة وتتسمى بها تلبيسًا على المهاجرين، وتحتج بهجرة الصحابة إلى الحبشة. وبعد الاطلاع على بعض موادهم المسموعة والمرئية، تبين أنهم: يتباكون أولاً على جراح المسلمين، ثم يحملونك أنت حل هذه القضايا الكبرى وكأنك ولي أمر المسلمين، ثم يطرحون الحل، ألا وهو الجهاد، والجهاد عندهم كما صرحوا به، لا بد لهم من الهجرة من بلاد المسلمين، التي تقام فيها الصلوات، ويحكم فيها بشرع الله ﷻ، لا بد من الهجرة منها إلى معسكرات الإعداد بأفغانستان، فيهاجر المغرر به إليهم، ثم يربونه بعدها على فكر التكفير لبلادنا والتفجير والتخريب فيها، واستباحة دماء المسلمين والمعاهدين، الذين دخلوا بلادنا بعهد وأمان، كما حصل للفرنسيين الأربعة، وكانوا قد قدموا لأداء العمرة، فيرجع ذلك

المهاجر المخدوع وقد امتلأ قلبه بغضًا وحقدًا على بلادنا وعلمائنا وولاة أمرنا، والله لقد سمعت أحدهم بعد أن منَّ الله عليه بالهداية والاستقامة على منهج السلف الصالح الذي قامت عليه بلادنا، ذكر أنه مكث عندهم خمس سنين، ولقنوه منهج التكفير والتفجير، يقول: فلما رجعت كنت أُطل على مدينتي وأقول: متى سيأتي اليوم الذي نفتحها، ويقول: كنت أمر على البنوك وأقول: اللهم اجعلها غنيمة للمجاهدين، وآخر سمعته يقول: تدربت عندهم حتى خرج الدم من يدي، نعم، تدربت من أجل تحرير الحرمين الشريفين، لا إله إلا الله، من ماذا سيحررون الحرمين الشريفين؟ من الركع السجود والطائفين العابدين؟ من العلماء الذين ينشرون العلم وينصرون التوحيد فيهما؟ ممن يخدمون الحرمين وحجاج بيت الله الحرام ويسهرون على أمنه؟ هذه بعض ثمرات تلك الهجرة المشؤومة، ثم يستدلون بعدها بالهجرة إلى الحبشة، قاتل الله الجهل، هكذا يفعل بصاحبه.

وطائفة ثالثة مفتونة، تحتج بحادثة الهجرة إلى الحبشة، وإليكم خبرها: يا معاشر العقلاء، لا يخفى عليكم أن كل قناة فضائية تخدم عقيدة وتوجهات أصحابها، فقد تكون مدعومة ومسيرة من جهات أخرى غير إسلامية، وقد يكون من يدبر هذه القناة، لم يدرك تمامًا عاقبة فعله، وأن ضرره راجع عليه لا على غيره، ذلك أن الله ﷻ لا يصلح عمل المفسدين، ومن ذلك إحدى القنوات التي تسعى لإثارة البلبلة في الجزيرة جزيرة الإسلام، وفي غيرها من بلاد المسلمين، لكن عداءها لبلاد الحرمين المملكة العربية السعودية أظهرُ وأكبرُ، تنشر الفتنة بينك وبين ولاة أمرك، وتحرضك على بلادك، وتكتم حسناتك وحسنات بلادك، وتشوش عليك وعلى بلادك، وما أحداث الجمرات قبل عامين بخافية عليكم، فقد ركبوا مطية الكذب، وزادوا في الكيد حتى افتضح أمرهم ولله الحمد والمنة.

وإنك لتسر حينما ترى إخوانك وبني عمك وأصحابك، وقد تجلى لهم كيد هؤلاء، وأنهم معاول هدم يريدون إثارة الفتنة لتصبح بلادنا مثل بعض البلاد التي اضطربت فيها الأمور، واختل فيها الأمن، وعظم فيها التخريب، أتظن أُخيَّ أن تلك القنوات تريد بك الإصلاح؟ لو كانت تريد الإصلاح لأتت البيوت من أبوابها، وبعد هذا كله يزعم أحدُ من كان يُحسب على الدعوة أن هذه القناة منبر من لا منبر له، وآخر يزعم أنها كالنجاشي الذي لا يظلم عنده أحد، كذبتم والله، فنحن أول المظلومين، بالله عليكم من الذي يروج لخطابات رأس الفتنة المتلفزة، وفيها التحريض على تفجير آبار النفط عندنا وضرب اقتصادنا، ويثني على من فجروا عند إحدى الوزارات، ويصف من يكفرنا ويستبيح دماءنا بالشهداء، من يروج لهذا

وأمثاله؟ أهو مثل النجاشي الذي لا يظلم عنده أحد؟ ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[الزخرف:١٩].

هؤلاء كلهم أُذَكِّرهم بعاقبة الظلم والتعدي على بلاد المسلمين ودمائهم، إن كنتم تحتجون بحادثة الهجرة إلى الحبشة، فأنصتوا لهذا الحديث الصحيح المحذر من ظلم العباد، عن جابر رضي الله عنه قال: "لما رجعتْ إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر، قال: ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟ قال فتية لهم: بلى يا رسول الله، بينا نحن جلوس، مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قُلةً من ماء، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها، فخرت على ركبتيها فانكسرت قُلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه وقالت: سوف تعلم يا غُدَر، إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم أمري وأمرك عنده غدًا، قال: يقول رسول الله ﷺ: صدقت صدقت، كيف يقدس الله أمة لا يُأخذ بضعيفهم لشديدهم؟" رواه ابن ماجه وقال في الزوائد: "إسناده حسن".

ومن الغدر: قتل من دخل بلادنا بعهد وأمان من ولي الأمر، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان)، هذا إن كانوا كفارًا، فكيف إذا كانوا مسلمين قدموا لأداء العمرة؟ قاتل الله أدعياء الجهاد، والجهاد بريء منهم.

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

الوقفة الحادية عشرة: (إسلام عمر وحمزة):

أما بعد: فيقول الله ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٢]، ومن هؤلاء المؤمنين: أبو حفص عمر الفاروق رضي الله عنه، قال ابن إسحاق: "لما قدم عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة على قريش ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله ﷺ، وردهم النجاشي بما يكرهون، وأسلم عمر بن الخطاب، وكان رجلا ذا شكيمة لا يُرام ما وراء ظهره، امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة، حتى عازُّوا قريشا –أي: غالبوها– فكان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول: "ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه"، وقال ابن إسحاق أيضا: "كان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة". وقال أبو نعيم: "أسلم عمر بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام". وكانوا يستبعدون إسلامه لشدته على المؤمنين، يقول سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل –وهو ابن عم عمر وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب: "والله لقد رأيتُني وإن عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم" خرجه الإمام البخاري، وروى أيضا أنه كان يوثق أخته فاطمة بنت الخطاب على الإسلام، عن أم عبدالله بنت أبي حثمة رضي الله عنها أنها قالت: "والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر –تعني: زوجها– في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر حتى وقف علي وهو على شركه، قالت: وكنا نلقى منه بلاء، أذى لنا وشدة علينا، قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبدالله؟ قالت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجا، قالت: فقال عمر: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف، وقد أحزنه فيما أُرى خروجنا، قالت: فجاء عامر –تعني: زوجها– بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبدالله، لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا، قال عامر: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم، قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: يأسا منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام"، ويبدو أن حدس المرأة كان أقوى، فقد كان رسول الله ﷺ يدعو الله أن ينصر دينه به، فعند الإمام أحمد وغيره أنه ﷺ قال: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب)، ولقد استجاب الله لنبيه ﷺ، وأعز الإسلام بعمر الفاروق رضي الله عنه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إن اسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة

حتى أسلم عمر، فلما أسلم، قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه". وقال ابن عباس ﵄ لعمر حين طعن: "كان إسلامك عزا، وأظهر الله بك الإسلام ورسولَ الله ﷺ وأصحابه" رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن. وروي عن صهيب الرومي رضي الله عنه أنه قال: "لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودُعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت –أي: الكعبة– حِلقا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به". روي عن ابن عباس أنه قال: "لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا". وكان من خبره رضي الله عنه ما روى ابن إسحاق في سيرته بإسناد جيد قوي كما قال الحافظ ابن كثير، روى ابن إسحاق عن ابن عمر ﵄ أنه قال: "لما أسلم عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، فغدا عليه، قال عبدالله: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كلما رأيت، حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد ﷺ، قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر، واتبعت أبي، حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة، ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، قال: يقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه، حتى قامت الشمس على رؤسهم، قال: وطَلَح –أي: تعب– فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله، أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل، لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا، قال: فبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ من قريش، عليه حلة حِبَرة، وقميص موَشَّى حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: صبأ عمر، قال: فمه؟ رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبَهم هكذا؟ خلوا عن الرجل، قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبا كُشط عنه، قال ابن عمر: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبتِ، من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك أي بني: العاص بن وائل السهمي".

ومن أسباب إسلامه رضي الله عنه: ما رواه ابنه عبدالله رضي الله عنه قال: "ما سمعت عمر لشيء قط يقول إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن، فبينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل فقال عمر: لقد أخطأ ظني، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، علي بالرجل، فدعي له فقال له ذلك، فقال الرجل: ما رأيت كاليوم استُقبل به رجل مسلم، قال عمر: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني، قال الرجل: كنت كاهنهم، قال عمر: فما

أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ قال: بينما أنا يوما في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تر الجن وإبلاسها***ويأسها من بعد إنكاسها

ولحوقها بالقِلاص وأحلاسها؟

قال عمر رضي الله عنه: صدَقت، بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله، فوثب القوم فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله، قلت: فقمت فما نشبنا أن قيل هذا نبي".

وأما قصة استماعه القرآن يتلوه الرسول ﷺ في صلاته قرب الكعبة، وعمر مستخف بأستارها، وكذلك قصته مع أخته فاطمة حين لطمها لإسلامها، وضرب زوجها سعيد بن زيد، ثم اضطلاعه على صحيفة فيها آيات وإسلامه، فلم يثبت شيء من هذه القصص من طريق صحيح، ولا شك أن القرآن له أثر عظيم في إسلام عمر وغيره، ممن يعرفون بلاغة القرآن ومعانيه، وعدم ثبوت تلك الروايات حديثا، لا يعني حتمية عدم وقوعها تاريخيا، بل إن بعضهم أثبتها، وصاحب السيرة الذهبية قد جمع طرق القصة وصححها، ومما أورده: "أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ذات ليلة إلى الكعبة فسمع النبي ﷺ وهو قائم يصلي، فسمع شيئا لم يسمع بمثله، وجعل يعجب من تأليف القرآن، فوقع الإسلام في قلبه، ودعا رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب فقال: (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة) فأصبح عمر -وكانت الدعوة يوم الأربعاء- وأسلم عمر يوم الخميس، وذلك أنه ولج على أخته وزوجها سعيد بن زيد، ومعهما خباب بن الأرت، وهم يقرؤون القرآن، فلما دخل عليهم خافوه، وقال: ما معكم؟ قالوا: ما كان معنا من شيء، وكابروه جهدهم، ثم لم يدعهم حتى أخرجوه، فقرؤوه عليه، فاستقام كما هو حتى قام إلى باب رسول الله ﷺ فقرع الباب، وكان هو وأصحابه مختفين في دار الأرقم بن الأرقم، فقالوا: من ذا؟ قال: عمر بن الخطاب على الباب، فأفزعهم ذلك، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا له: عمر على الباب، عمر على الباب، فقال ﷺ: (ائذنوا له)، فدخل فضرب رسول الله ﷺ صدره بيده ثلاث مرات وهو يقول: (اللهم أخرج ما في صدر عمر من غل وأبدله إيمانا، اللهم أخرج ما في صدر عمر من غل وأبدله إيمانا، اللهم أخرج ما في صدر عمر من غل وأبدله إيمانا) وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فكبر رسول الله ﷺ وأهل البيت تكبيرة سُمعت

بأعلى مكة، فقام عمر فقال: يا رسول الله، علام نخفي ديننا ونحن على الحق، ويظهر دينهم وهم على الباطل؟ قال: (يا عمر إنا قليل وقد رأيت ما لقينا) فقال عمر: فوالذي بعثك بالحق، لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان، ثم خرج، فاتبع المجالس التي كان يجلس فيها فيُظهر الإيمان، وخرج رسول الله ﷺ، وخرج عمر أمامه وحمزة بن عبد المطلب، حتى طاف بالبيت وصلى الظهر، ثم انصرف إلى دار الأرقم، ومعه عمر وحده، ثم انصرف النبي ﷺ".

معاشر المؤمنين، إن الأفق المتلبد بالغيوم قد يتولد منه برق يضيء، و﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[الشرح:٦]، و﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[الطلاق:٧]، و(إن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب)، و﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾[الطلاق:٢]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[الطلاق:٤].

لما عظم الإيذاء واشتد، وكثر الاستهزاء برسول الله ﷺ، أذن الله بالفرج، وأعز الله الإسلام وأهله برجلين شريفين كريمين، عمر وحمزة رضي الله عنهما، نعم، حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، قال الصالحي في سبل الهدى والرشاد: "روى ابن إسحاق قال: حدثني رجل من أسلم وكان واعية، وكذا روى الطبراني برجال ثقات، عن يعقوب عن عتبة بن المغيرة والطبراني برجال ثقات عن محمد بن كعب القرظي، أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا، فآذه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبدالله بن جُدْعان في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه فعمد إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبدالمطلب أن أقبل متوشِّحًا قوسه، راجعا من قنص –أي: صيد– يرميه ويخرج له، فكان إذا رجع من قنصه، لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك، لم يمر على نادي إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى من قريش وأشده شكيمة، فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له: يا أبا عُمارة: لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي جهل الحكم بن هشام، وجده هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد، فاحتمل حمزة الغضب، لما أراد الله به من كرامته فخرج يسعى، ولم يقف على أحد معدا لأبي جهل إذا لقيه أن يقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس، فضربه بها، فشجه بها شجة منكرة وقال: أتشتمه وأنا

على دينه أقول ما يقول؟ فرُد عليَّ ذلك إن استطعت، فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا. زاد يونس بن بكير عن ابن إسحاق: ثم رجع حمزة إلى بيته فقال: أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابئ وتركت دين آبائك؟ للموت خير لك مما صنعت، ثم قال: اللهم إن كان رَشَدًا فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجا، فبات بليلة لم يبت مثلها من وسوسة الشيطان، حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إني قد وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هو أَرَشَد أم هو غي شديد، فحدثني حديثا، فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدثني، فأقبل رسول الله ﷺ عليه، فذكَّره ووعظه وخوفه وبشره، فألقى الله في قلبه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ، فقال: أشهد إنك لصادق، فأظهِر يا ابن أخي دينك، فوالله ما أحب أن لي ما أظلَّته السماء وأني على ديني الأول، وتم حمزة على إسلامه، وعلى ما بايع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ عز وامتنع، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ﷺ، وقال حمزة رضي الله عنه حين أسلم:

حَمَدت الله حين هدى فؤادي***إلى الإسلام والدين الحنيف

لدين جاء من رب عزيز***خبير بالعباد بهم لطيف

إذا تليت رسائله علينا***تحدر دمع ذي اللب الحصيف.

من فوائد هذه القطعة من السيرة النبوية العطرة ما يأتي:

أن إسلام حمزة على ما ذكره أهل السير كان بسبب إيذاء أبي جهل لرسول الله ﷺ، وهكذا كان ذلك الشر سببا لخير عظيم لحمزة، فسبحان من يعلم عواقب الأمور.

وفيه: أن ما يحصل للموحدين من إيذاء، قد يكون مجلبة للقلوب، فينتصر لهم أناس، ويهتدي آخرون، ولله في خلقه شؤون.

ومن فوائدها: أن الانتصار للعشيرة وبني العم ليس ممقوتا دائما، فإذا كان ذلك في إحقاق الحق، ورفع الظلم، وإعلاء دين الله، فحسن كما فعل حمزة رضي الله عنه، وإن كان الانتصار للعشيرة وبني العم في الباطل وظلم العباد، فهذه الجاهلية المنتنة، ويدخل في ذلك إعانة قريب كان يحمل فكرا منحرفا أو بدعة في إيواء أو تستر عليه، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: (لعن الله من آوى محدثا).

ومن فوائدها: بركة الانتصار لرسول الله ﷺ، فقد فتح الله على قلب حمزة بسبب ذلك، فهنيئا لمن انتصر وذب ودافع عن سيد ولد آدم ﷺ.

ومن فوائدها: عدم اليأس من إيمان شخص ما، كما في قصة زوجة عامر لما رأت شفقة عمر وهي مرتحلة إلى الحبشة، رجت إسلامه، وقد وقع ذلك بحمد الله ﷻ.

ومن فوائدها: مشروعية الدعاء بالهداية لغير المسلمين، خاصة من يُرجى نفعه للإسلام وأهله، كما رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولما قيل له ﷺ: إن دوسا عصت الله وأبت، فادع عليهم، فقال ﷺ: (اللهم اهد دوسا وائت بهم) خرجه الإمام البخاري.

ومن فوائدها: مشروعية إغاظة الكفار دون اعتداء عليهم، وذلك بإظهار شعائر الإسلام، والجهر بها، كما فعل عمر رضي الله عنه، لما بادر إلى إعلان إسلامه وعبادة ربه عند الكعبة، فأحزن ذلك المشركين، فواعجبا من مسلم يستحي من الصلاة علانية في المطارات الخارجية وغيرها من بلاد الكفر، دون أن يحصل له إيذاء، ألا فاعتزوا بدينكم وأظهروه، فقد يكون ذلك سببا في إسلام من يراكم.

ومن فوائدها: الدعوة إلى الله بالقرآن، كما قال ﷻ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾[الأنعام:١٩]، وقال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق:٤٥]، لقد كان اهتداء عمر بسماع القرآن الكريم، فليحرص الدعاة والخطباء على دعوة الناس بالقرآن، ووعظ الناس به، ولتكن الدعوة بالكتاب والسنة، فبهما اهتدى من قبلنا، فما بال أقوام لا يدعون إلى الله بالقرآن والسنة، بل بالطرائف والمضحكات والأناشيد والقصص المكذوبة.

ومن فوائدها: أن ما صححه بعضهم من تكبير الصحابة عند إسلام عمر، يدل أن المشروع عند رؤية أو سماع ما يسر التكبير لا التصفيق، سئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عما يفعله بعضهم في الحفلات في التصفيق والصفير فقال: "الحكم في هذا أنه متلقا من غير المسلمين فيما يظهر، فلذلك لا ينبغي للمسلم أن يستعمله، وإنما إذا أعجبه شيء يكبر أو يسبح الله ﷻ، وليس أيضا على سبيل التكبير الجماعي كما يفعله بعض الناس، وإنما يسبح الإنسان بينه وبين نفسه، أما التكبير الجماعي أو التسبيح الجماعي عندما يأتي شيء يدعو للعجب فهذا لا أعلم له أصلا" انتهى كلامه رحمه الله وغفر له.

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

الوقفة الثانية عشرة: (حادثة الشعب):

أما بعد معاشر المؤمنين، لقد أعز الله رسوله محمدا ﷺ، ونصره على أصحاب الصحيفة الظالمة، الذين تقاسموا على الكفر، فدخل مكة بعدُ فاتحا، ثم حج وأظهر عزة المسلمين بذلك المكان الذي تحالف فيه الظالمون.

في الصحيحين والمسند من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه قال: "قلت: يا رسول الله أين نتزل غدا؟ -في حجته- فقال ﷺ: (وهل ترك لنا عقيل مترلا، ثم قال: نحن نازلون غدا بخيف بني كنانة –يعني: المحصب- حيث تقاسمت قريش على الكفر)، وذلك أن بني كنانة حالفت قريشا على بني هاشم، أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يُئووهم، ثم قال عند ذلك: لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر" قال الزهري: الخيف: الوادي". وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى: (نحن نازلون غدا بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر) وذلك أن قريشا وبني كنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب، أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ –يعني: بذلك المحصب"، قال الحافظ ابن حجر غفر الله له: "ولما لم يثبت عند الإمام البخاري شيء من هذه القصة، اكتفى بإيراد حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لأن فيه دَلالة على أصل القصة، لأن الذي أورده أهل المغازي من ذلك، كالشرح لقوله ﷺ: تقاسموا على الكفر" انتهى.

ومما ذكره أهل المغازي ما أورده الإمام ابن إسحاق في سيرته، وذكر خلاصته ابن القيم في زاد المعاد، قال الإمام محمد بن إسحاق غفر الله له في قصة صحيفة المقاطعة: "لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدا أصابوا منه أمنا وقرارا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه، وأن عمر أسلم، فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الاسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا على أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على أن لا يَنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك، كتبوا في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة"، قال الحافظ ابن كثير: "والمشهور أنه منصور بن عكرمة كما ذكره ابن إسحاق، وهو الذي شُلت يده،

فما كان ينتفع بها، وكانت قريش تقول: انظروا إلى منصور بن عكرمة"، وصحح الإمام ابن القيم أنه بغيض بن عامر، وأنه ﷺ دعا عليه فشلت يده.

قال ابن إسحاق: "فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه، واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب عبدالعزى بن عبدالمطلب إلى قريش فظاهرهم، فلما اجتمعت على ذلك قريش وصنعوا فيه الذي صنعوا قال أبو طالب:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا***لؤيًّا وخُصًّا من لؤي بني كعب

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا***نبيا كموسى خُط في أول الكتب

فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا***لعزاء من عَض الزمان ولا كرب.

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا، حتى جَهِدوا ولم يصل إليهم شيء إلا سرا، مستخفيا به من أراد صلتهم من قريش، وقد كان أبو أجهل فيما يذكرون: لقي حكيم بن حزام معه غلام يحمل قمحا يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله ﷺ ومعه في الشعب، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تذهب أنت وطعامك، حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هشام فقال: مالك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال له أبو البختري: طعام كان لعمته عنده، بَعثت إليه، أتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل، قال: فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ له أبو البختري لحيا بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطئا شديدا وحمزة بن عبدالمطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيَشْمَتوا بهم".

قال الزهري: "فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركوا لهم طعاما يَقْدَم مكة، ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سَفْك دم رسول الله ﷺ، فكان أبو طالب إذا أخذ الناسُ مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد به مكرًا واغتيالاً له، فإذا نوم الناس، أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه، فاضجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسولَ الله ﷺ أن يأتي بعض فُرشهم فينامَ عليه".

فبقي بنو هاشم وبنو المطلب ثلاث سنين في منزلهم، الذي تعاقدت فيه قريش عليهم، للصحيفة التي كتبوها، ثم إنه قام في نقض الصحيفة نفر من قريش، ولم يُبلِ فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو، وكان هشام لبني هاشم واصلا، وكان ذا شرف في قومه، قال ابن

إسحاق: "فكان فيما بلغني يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلا، قد أوقره طعاما، حتى إذا بلغ به فم الشعب خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبيه، فدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بُرا فيفعل به مثل ذلك، ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة، وكانت أمه عاتكةَ بنت عبدالمطلب فقال: يا زهير، أقدْ رضيتَ أن تأكل الطعام وتلبسَ الثياب وتنكحَ النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكحون ولا يُنكح إليهم، أما إني أحلف بالله لو كان أخوال أبي الحكم بن هشام -يعني: أبا جهل- ثم دعوتَه إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدا، قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، قال: قد وجدت رجلا، قال: من هو؟ قال: أنا، قال زهير: أَبْغِنا ثالثا، فذهب إلى المطعم بن عدي فأجابه، ثم ذهب إلى أبي البختري بن هشام فأجابه، وكذلك زمعة بن الأسود بن المطلب، فصاروا خمسة واتعدوا خَطْم الحُجُون ليلا بأعلا مكة، فاجتمعوا هنالك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يَبتاعون ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعةُ الظالمة، قال أبو جهل وكان في ناحية المسجد: كذبت، والله لا تشق، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كُتبت، قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كُتب فيها، ولا نُقِر به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كُتب فيها، قال هشام بن عمرو نحوا من ذلك، قال أبو جهل: هذا أمر قُضي بليل، تُشُوِّر فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأَرَضَة قد أكلتها إلا باسمك اللهم، فلما مُزقت الصحيفة وبطل ما فيها، قال أبو طالب فيما كان من أمر أولئك القوم الذين قاموا في نقض الصحيفة يمدحهم، ويبشر المهاجرين في البحر إلى الحبشة بذلك:

ألا هل أتى بَحْرِيَّنا صُنع ربنا***على نأيهم والله بالناس أرودُ -أي: أرفق-
فيخبرهم أن الصحيفة مُزقت***وأن كل ما لم يرضه الله مُفْسَدُ
أعان عليها كل صقر كأنه***إذا ما مشى في رفرف الدرع أحْرَدُ
من الأكرمين من لؤي بن غالب***إذا سيم خسفا وجهه يتربدُ.

قال ابن القيم غفر الله له: "أطلع الله رسوله ﷺ على أمر صحيفتهم، وأنه أرسل عليها الأرضة فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم، إلا ذكر الله ﷻ، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش فأخبرهم، أن ابن أخيه قال كذا وكذا، فإن كان كاذبا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت، فأنزلوا الصحيفة، فلما رأوا الأمر كما أخبر به رسول الله ﷺ ازدادوا كفرا إلى كفرهم، وخرج النبي ﷺ ومن معه من الشعب، قال ابن عبد البر: بعد عشرة أعوام من المبعث، وهناك عمل أبو طالب قصيدته اللامية المشهورة" انتهى كلام ابن القيم غفر الله له. وكذا قال ابن كثير رحمه الله: "الأشبه أن أبا طالب إنما قال قصيدته اللامية بعد دخولهم الشعب، قال: وهذه قصيدة فصيحة بليغة جدا، لا يستطيع أن يقولها إلا من نُسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعا" انتهى كلامه.

وقد ذكر أبو طالب تكالب الأعداء، وأنه غير مسلم رسول الله ﷺ حتى يَهْلِك دونه، ومما قال في هذه اللامية:

ولما رأيت القوم لا وُدَّ عندهم***وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وقد صارحونا بالعداوة والأذى***وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

وقد حالفوا قوما علينا أظِنَّة***يعضون غيظا خلفنا بالأنامل

صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة***وأبيضَ عَضْب من تراث الـمَقاول

وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي***وأمسكت من أثوابه بالوصائل

أعوذ برب الناس من كل طاعن***علينا بسوء أو مُلِح بباطل

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا –أي: لا نُغلب عليه ولا نُسلبه–***ولما نطاعنْ دونه ونناضلُ

ونسلمه حتى نُصَرَّع حوله***ونَذْهَل عن أبنائنا والحلائل

وأبيضَ يُستسقى الغمام بوجهه***ثِمال اليتامى عصمةً للأرامل

يلوذ به الهُلاك من آل هاشم***فهم عنده في رحمة وفواضل

لعمري لقد كُلِّفت وَجْدًا بأحمدٍ***وإخوته دأب المحب المواصل

فوالله لولا أن أجيء بسُبة***تُجَر على أشياخنا في المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالة***من الدهر جدا غيرَ قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مُكَذب***لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل

حَدِبْت بنفسي دونه وحميته***ودافعت عنه بالذرى والكلاكل.

والذرى: ما استتر به، والكلاكل: جمع كلكل، وهو الصدر أو ما بين الترقوتين.

وقد ذكر ابن إسحاق رحمه الله وغفر له، قصصا معترضا بها بين تعاقد قريش على بني هاشم وبني المطلب، وكتابتهم عليهم الصحيفة الظالمة، وحصرهم إياهم في الشعب، وبين نقض الصحيفة وما كان من أمرها، قال الحافظ ابن كثير: "وهي أمور مناسبة لهذا الوقت، ولهذا قال الشافعي رحمه الله: من أراد المغازي فهو عيال على ابن اسحاق". ومما ذكره رحمه الله وأورده العلامة الألباني في صحيح السيرة: "أن قريشا لما رأت أن الله منع الرسول ﷺ منها، وقام عمه وقومه من بني هاشم وبني المطلب دونه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به، فلما رأت قريش ذلك جعلوا يهمزونه، ويستهزئون به ويخاصمونه، وجعل القرآن يترل في قريش بإحداثهم وفيمن نصب لعداوته، منهم من سُمي لنا، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار، فذكر قول أبي لهب: يعدني محمد أشياء لا أراها، يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يدي بعد ذلك؟ ثم ينفخ في يديه فيقول: تبا لكما، لا أرى فيكما شيئا مما يقول محمد" فأنزل الله ﷻ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[المسد:١]. وذكر قول أبي جهل للنبي ﷺ: لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك، ونزول قول الله فيه: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[الأنعام:١٠٨]. وذكر النضر بن الحارث، وجلوسه بعد النبي ﷺ في مجالسه حيث يتلوا القرآن، ويدعو إلى الله ﷻ، فيتلو عليهم النضر شيئا من أخبار رستم وأسفنديار، وما جرى بينهما من الحروب في زمن الفرس ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين، اكتتبها كما اكتتبها، فأنزل الله: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الفرقان:٥]، قال ابن إسحاق: "وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغنا يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾[الأنبياء:٩٨-١٠٠]، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبدالله بن الزِبَعْرَى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لمحمد آنفا وما قعد، وقد زعم محمد

أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبدالله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمدا: أَكُل ما نعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد عيسى، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنما يعبدون الشياطين ومن أمرهم بعبادته، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾[الأنبياء:١٠١-١٠٢] أي: عيسى وعزير ومن عُبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة، وأنها بنات الله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾[الأنبياء:٢٦] والآيات بعدها، ونزل في إعجاب المشركين بقول ابن الزبعرى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف:٥٧-٥٨]، وهذا الجدل الذي سلكوه باطل، وهم يعلمون ذلك، لأنهم قوم عرب، ومن لغتهم: أن (ما) لما لا يعقل، فقوله ﷻ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[الأنبياء:٩٨]، إنما أريد بذلك ما كانوا يعبدونه من الأحجار، التي كانت صور أصنام، ولا يتناول ذلك الملائكة الذين زعموا أنهم يعبدونهم في هذه الصور، ولا المسيح ولا عزيرًا ولا أحدًا من الصالحين، لأن اللفظ لا يتناولهم، لا لفظًا ولا معنى، فهم يعلمون أن ما ضربوه بعيسى ابن مريم من المثل جدلٌ باطل كما قال الله ﷻ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف:٥٨]، وذكر ابن إسحاق أيضا الوليد بن المغيرة حيث قال: أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟ ويترك أبو مسعود الثقفي سيد ثقيف؟ فنحن عظيما القريتين، فنزل قوله ﷻ فيه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾[الزخرف:٣١-٣٢] الآية. وذكر أبيَّ بن خلف حين قال لعقبة بن أبي معيط: ألم يبلغني أنك جالست محمدا وسمعت منه؟ وجهي من وجهك حرام إلا أن تَتْفُل في وجهه، ففعل ذلك عدو الله عقبة، فأنزل الله: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ

خَذُولًا ﴾[الفرقان:٢٧-٢٩]، قال: ومشى أبي بن خلف بعظم بالٍ قد أرم، فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما بلي؟ ثم فتَّه بيده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ فقال ﷺ: نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يُدخلك النار، وأنزل الله ﷻ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[يس:٧٨-٧٩] إلى آخر السورة، قال: واعترض رسولَ الله ﷺ -فيما بلغني- وهو يطوف عند باب الكعبة: الأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فأنزل الله فيهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾[الكافرون:١-٢] إلى آخرها".

ومما زاده العلامة الألباني في صحيح السيرة له: "ما روى ابن إسحاق: أن أبا معيط – يعني: عقبة بن أبي معيط- كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكان رجلا حليما، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبأ أبو معيط، وقدم خليله من الشام ليلا، فقال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشد مما كان أمرا، فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صبأ، فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط فحياه، فلم يرد عليه التحية، فقال: مالك لا ترد علي تحيتي؟ فقال: كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت؟ قال: أوقد فعلتها قريش؟ قال: نعم، قال: فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلت؟ قال: تأتيه في مجلسه وتبزق في وجهه، وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم ففعل، فلم يزد النبي ﷺ أن مسح وجهه من البزاق ثم التفت إليه فقال: إن وجدتك خارجا من جبال مكة، أضربْ عنقك صبرا، فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج، فقال له أصحابه: يا أبا معيط اخرج معنا، قال: قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجا من جبال مكة أن يضرب عنقي صبرا، فقالوا: لك جمل أحمر لا يُدرك، فلو كانت الهزيمة طرت عليه، فخرج معهم، فلما هزم الله المشركين، وَحَل به جمله في جُدَد من الأرض —أي: أعيا به في أرض مستوية–، فأخذه رسول الله ﷺ أسيرا في سبعين من قريش، وقُدِّم إليه أبو معيط، فقال: يا محمد، تقتلني من بين هؤلاء؟ فقال ﷺ: نعم، بما بزقت في وجهي، فأنزل الله في أبي معيط: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ

خَذُولًا﴾[الفرقان:٢٧-٢٩]، قال الألباني: أخرجه ابن مردويه وأبو نُعيم في الدلائل بسند صحيح، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس كما في الدر المنثور".

وقال الحافظ العراقي رحمه الله وغفر له في ألفيته المسماة بنظم الدرر السنية في السير الزكية عن هذه الحادثة:

فنزلوا عند النجاشي على***أتم حال وتغيظ الملا

على النبي وعلى أصحابه***وكتب البغيض في كتابه

على بني هاشم الصحيفة***وعُلقت بالكعبة الشريفة

ألا يناكحوهموا ولا ولا***وحُصروا في الشعب حتى أقبلا

أول عام سبعة للبعث***قاسَوْا به جهدا بشر مكث

وسُمعت أصوات صبيانهمي***فساء ذاك بعض أقوامهمي

وأطلع الرسولُ أن الأَرَضَه***أكلت الصحيفة المُبَغَّضة

ما كان من جور وظلم ذهبا***وبقي الذكر كما قد كتبا

فوجدوا ذاك كما قال وقد***شُلت يد البغيض والله الصمد

فلبسوا السلاح ثم أُخرجوا***من شعبهم وكان ذاك المخرجُ

لعام عشرة بغير مَيْنِ***وقيل كان مكثهم عامين.

إلى آخر كلامه رحمه الله وغفر له.

هذه الحادثة فيها فوائد:

منها: أنها تبين شدة عداوة المشركين وظلمهم لأهل الإسلام ولمن انتصر لهم، فكانت مدة الإيذاء الشديد والحصار المؤلم ثلاث سنين، وشمل ذلك الصغير والكبير، والرجل والمرأة، ومُنع عنهم الطعام والشراب، وضُيق عليهم، فأي قسوة هذه، ويقابل ذلك عدل الإسلام ورحمته، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾[المائدة:٢]، وفي الحديث: (أنه ﷺ نهى عن قتل النساء والصبيان) يعني: في الجهاد.

ومن فوائدها: بيان عظيم صبر الرسول ﷺ وأصحابه على ما لقوا من الأذى وتكالب الأعداء، وصبروا حتى جعل الله لهم فرجا ومخرجا، وفي الحديث: (واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب).

ويستفاد من قيام رجال من قريش في نقض الصحيفة الظالمة والبراءة منها: أن الله قد يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، كما ثبت عن رسول الله ﷺ، وأن الباطل مهما زاد زمانه

فسينكشف، وطول الزمان يزيد الحق وضوحا والباطل زهوقا، ولقد انتهت هذه المقاطعة على نحو فرق كلمة قريش، وأوقع الخصام والتزاع بينهم، وأظهر صبر الرسول ﷺ وأصحابه، وثباتهم على نحو أقوى مما كانوا عليه من قبل، فأَيِس المشركون من رجوعهم إلى دين قريش.

ومن فوائدها: خطورة المقاطعة الاقتصادية، فكفار قريش لم يحاربوا الرسول ﷺ بالسلاح، وإنما كانت حربهم له حربا اقتصادية بالمقاطعة، فقاطعوه وقاطعوا أتباعه وعشيرته، والدول تعتبر هذه المقاطعة أحيانا بمثابة إعلان حرب، فمن أجل خطورتها وعظيم تبعاتها، وردود الأفعال غير المتوقعة من الطرف المقاطَع، من أجل ذلك وغيره، أفتى علماؤنا بأن المقاطعة الاقتصادية لدولة من الدول، يُرجع فيها لولي أمر المسلمين لا لآحاد الرعية، والحكومة تفعل ما هو الأصلح للمسلمين، فلا يجوز الافتيات والتعدي على صلاحياتها في ذلك، وقد ورد إلى اللجنة الدائمة للإفتاء في المملكة العربية السعودية سؤال هذا نصه:

يتردد الآن دعوات لمقاطعة المنتجات الأمريكية، فهل نستجيب لهذه الدعوات؟

فأجابت اللجنة الدائمة للإفتاء بقولها: "يجوز شراء البضائع المباحة أيًّا كان مصدرها، ما لم يأمر ولي الأمر بمقاطعة شيء منها، لمصلحة الإسلام والمسلمين، لأن الأصل في البيع والشراء الحل، قال ﷻ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾[البقرة:٢٧٥] والنبي ﷺ اشترى من اليهود" انتهى كلام اللجنة الدائمة. فجعل علماؤنا الأمر بالمقاطعة من صلاحيات ولي الأمر، فولي الأمر هو الذي يأمر بهذه المقاطعة، ويلزم الناس بها، لا أصحاب البيانات الموقعة جماعيا، فمن دعاكم بعدها إلى تلك المقاطعات العاطفية فلا تستجيبوا له، واعلموا أن الشراء منهم لا يعني محبتهم ولا موالاتهم ولا رضىً بسبهم لرسول الله ﷺ، ولهذا ذكرت اللجنة الدائمة في جوابها السابق: أن الرسول ﷺ اشترى من اليهود مع أنهم سبوا النبي ﷺ، وكذّبوه وسعوا في قتله مرات، بل سبوا الله فقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾[المائدة:٦٤]، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾[آل عمران:١٨١]، فماذا يقول المتشددون بعد هذا كله؟ ولماذا يضيقون على المسلمين؟ ويجعلونهم في شك مما أحل الله من المطعومات وغيرها.

ومن الفوائد: بيان حكمة الله وعجيب خلقه وصنعه، كيف يبتلي عباده المؤمنين ليعظم أجرهم، ثم يجعل العاقبة لهم، ففي ظل تلك المقاطعة الظالمة، والمؤمنون محصورون في الشعب لا حول لهم ولا قوة، لكنهم واثقون بموعود الله، ما زادهم ذلك إلا إيمانا وتسليما، وما كان المشركون يظنون أبدا أن يوما قريبا أو بعيدا سينشق فجره، فإذا مكة خالية من الأصنام، وإذا أذان بلال بالتوحيد يُدَوِّي في أرجائها، وإذا المحصورون في الشعب هم أصحاب الأمر

والنهي، وإذا صناديد قريش أسرى يرجون العفو، لقد كان المشركون يستبعدون ذلك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[يونس:٤٨]، نعم، لقد جاء ذلك اليوم، فتحت مكة، ونصر الله عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأُذن في السنة التاسعة ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وفي السنة العاشرة حج رسول الله ﷺ، وحوله أصحابه الذين صدق فيهم قوله ﷻ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[القصص:٥].

ومن فوائدها: الثبات على الدين الحق، وقمع المتاجرة بالعقائد كما في القصة المتقدمة، التي نزل فيها قوله ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾[الكافرون:١-٢].

ومن فوائدها: أن من يُرجى منه النُصرة للدعوة قد يكون من أعدى أعدائها، كما فعل أبو لهب عم النبي ﷺ، وهكذا اليوم، قد يُبتلى أهل السنة بقريب يعاديهم، وكانوا يرجون نصره، فقد وُجد من بني جلدتنا من يطعن في دعوتنا السلفية، التي قامت عليها بلادنا، ووجد من يشكك في رسائل وكتب وردود أئمة الدعوة كالدرر السنية، ووجود في بني جلدتنا من يعظم رموز الجماعات الحركية المحدثة، القائمة على منهج الخوارج، ويصف قادتها بالشهداء وقادة الجيل والملهمين، ثم يميل بعدها مسفها علماءنا الكبار، زاعما أنهم علماء السلطان والحكومة، لا يفقهون الواقع، ويداهنون في الدين، وكذب والله، فإنهم برآء مما يقوله الظالمون.

ومن فوائدها: الحذر من الجدال بالباطل، كما في قوله ﷻ ذاما لمشركي قريش: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف:٥٨]، وتقدمت القصة، فحري بالمسلم أن ينأى بنفسه عن المجادلة والمراء والخصومات في الدين، فإنها الحالقة، وليكن طالبا للحق، لينا سهلا، إذا تبينت له المحجة قال سمعنا وأطعنا، وليعمل بقول بعض السلف: "علم الناس السنة ولا تخاصم".

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

الوقفة الثالثة عشرة: (عام الحزن وذكر زوجاته):

أما بعد، فيقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[القصص:٥٦].

بعد نقض تلك الصحيفة الجائرة، وخروجهم من الشعب، توفي أبو طالب عم رسول الله ﷺ، ومن بعده خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله ﷺ، على المشهور كما ذكر الحافظ ابن كثير، وقيل: بل توفيت قبله.

قال الإمام ابن إسحاق غفر الله له: "ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله المصائب، بهُلك خديجة وكانت له وزيرة صدق على الإسلام يسكن إليها، وبهلك عمه أبي طالب وكان له عَضُدًا وحرزا في أمره، ومنعة وناصرا على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب".

وأبو طالب مات على الشرك ولم يؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ، وما روي عن العباس رضي الله عنه: من أنه تشهد قبل موته لم يثبت، كما ذكر الحافظ ابن كثير في تاريخه.

ومما يدل على موته على الشرك: ما رواه البخاري من طريق ابن المسيَّب عن أبيه: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: (أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: هو على ملة عبدالمطلب، فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك) فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾[التوبة:١١٣]، ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[القصص:٥٦]. وفي الصحيحين أيضا من حديث ابن المسيب عن أبيه بنحوه وقال فيه: (فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله). يقول أبو هريرة رضي الله عنه: لما حضرت وفاة أبي طالب، أتاه رسول الله ﷺ فقال: يا عماه، قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة، فقال أبو طالب: لولا أن تعيرني قريش يقولون: ما حمله عليه إلا جزع الموت

لأقررت بها عينك، ولا أقولها إلا لأقر بها عينك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦]. ويؤكد هذا كله ما خرجاه من حديث العباس بن عبدالمطلب أنه قال للنبي ﷺ: (ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال ﷺ: (هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار). ورويا –أعني: البخاري ومسلما– من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ، وذكر عمه فقال: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعلَ في ضحضاح من النار، يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه). وعند مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أنه ﷺ قال: (أهون أهل النار عذابا أبو طالب، منتعلٌ بنعلين من نار يغلي منهما دماغه).

قال الحافظ ابن كثير غفر الله له: "وقد قدَّمنا ما كان يتعاطاه أبو طالب من المحاماة والمحاجَّة والممانعة عن رسول الله ﷺ، والدفع عنه وعن أصحابه، وما قاله فيه من الممادح والثناء، وما أظهر له ولأصحابه من المودة والمحبة والشفقة، في أشعاره التي أسلفناها، وما تضمنته من العيب والتنقص لمن خالفه وكذبه، بتلك العبارة الفصيحة البليغة، الهاشمية المطلبية، التي لا تدانى ولا تسامى، ولا يمكن عربيا مقاربتها ولا معارضتها، وهو في ذلك كله يعلم أن رسول الله ﷺ صادق بار راشد، ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه، ولم يقدر الله له الإيمان، لما له سبحانه وتعالى في ذلك من الحكمة العظيمة، والحجة القاطعة البالغة الدامغة، التي يجب الإيمان بها والتسليم لها، ولولا ما نهانا الله عنه من الاستغفار للمشركين، لاستغفرنا لأبي طالب وترحمنا عليه" انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

وفي هذا العام توفيت خديجة رضي الله عنها، يقول الإمام البيهقي رحمه الله: "بلغني أن خديجة توفيت بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام، ذكره أبو عبدالله بن مَنْده في كتاب المعرفة، وشيخنا أبو عبدالله الحافظ، وزعم الواقدي أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين، عام خرجوا من الشعب، وأن خديجة توفيت قبل أبي طالب بخمس وثلاثين ليلة".

ولقد جاءت الآثار بفضائلها وشرفها رضي الله عنها وأرضاها، روى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب). قال السهيلي: "إنما بشرها ببيت في الجنة من قصب يعني: قصب اللؤلؤ، لأنها حازت قصب السبق إلى الايمان، لا صخب فيه ولا نصب، لأنها لم ترفع صوتها على النبي ﷺ، ولم تُتْعِبه يومًا من الدهر، فلم

تصخب عليه يوما ولا آذته أبدا"، تقول عائشة ﵂: "ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها هلكت قبل أن يتزوجني ﷺ، وتزوجني بعدها بثلاث سنين، ولكن كان ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول ﷺ: (إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد)". وروى البخاري عن عائشة ﵂ أنها قالت: "استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة ﵂ على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاع فقال: (اللهم هالة) قالت عائشة: فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين –أي: قد سقطت أسنانها–، هلكت في الدهر الأول، قد أبدلك الله خيرا منها؟". روى أحمد بإسناد لا بأس به كما قال الحافظ ابن كثير، عن عائشة ﵂ أنها قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء، قالت: فغرت يوما فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله خيرا منها؟ فقال ﷺ: (ما أبدلني الله خيرا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولادَ النساء)، وقوله ﷺ في هذا الحديث: (ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء) إنما كان هذا قبل أن يولد إبراهيم ابن النبي ﷺ، من مارية القبطية المصرية ﵂.

وقد اختلف في التفضيل بين عائشة وخديجة ﵄، قال الحافظ ابن كثير: "والحق أن كلا منهما لها من الفضائل ما لو نظر الناظر فيه لبهره وحيره، والأحسن التوقف في ذلك، ورد علم ذلك إلى الله ﷻ، ومن ظهر له دليل يقطع به أو يغلب على ظنه في هذا الباب، فذاك الذي يجب عليه أن يقول بما عنده من العلم، ومن حصل له توقف في هذه المسألة أو في غيرها، فالطريق الأقوم والمسلك الأسلم أن يقول: الله أعلم" ثم أورد رحمه الله حديث أبي موسى في الصحيحين أنه ﷺ قال: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء: إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)، والثريد: هو الخبز واللحم جميعا، وهو أفخر طعام العرب، ثم قال رحمه الله: "يحتمل قوله: (وفضل عائشة على النساء) أن يكون عاما فيعم النساء المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عاما فيما عداهن، ويبقى الكلام فيها وفيهن موقوفا، يحتمل التسوية بينهن، فيحتاج مرجح واحدة منهن على غيرها إلى دليل خارج والله ﷻ أعلم" انتهى كلامه.

وبعد وفاة خديجة ﷺ تزوج ﷺ بعائشة بنت الصديق أولا، ثم بسودة بنت زمعة ﷺ، كما قال الحافظ ابن كثير، روى الإمامان البخاري ومسلم عن عائشة ﷺ أنها قالت: (إن النبي ﷺ قال لها: أُريتك في المنام، يجيء بك الملك في سرقة –أي: قطعة من حرير– فقال لي: هذه امرأتك، فكشفت عن وجهك الثوب، فإذا أنت هي، فقلت: إن يكُ هذا من عند الله يُمضه) وفي رواية: (أريتك في المنام ثلاث ليال)، وعند الترمذي: (أن جبرائيل جاءه بصورتها في خرقة من حرير خضراء، فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة). قال أبو سلمة ويحيى: "لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون ﷺ فقالت: يا رسول الله ألا تَزَوَّج؟ قال: من؟ قالت: إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا، قال: فمن البكر؟ قالت: ابنة أحب خلق الله إليك، عائشة بنت أبي بكر، قال: ومن الثيب؟ قالت: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك على ما تقول، قال: فاذهبي فاذكريهما عليَّ، فدخلت بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر، فقالت: يا أبا بكر ماذا أُدخل عليك من الخير والبركة؟ قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة ﷺ، قال: وهل تصلح له، إنما هي ابنة أخيه؟ فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال ﷺ: ارجعي فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي، فرجعت فذكرت ذلك له، قال: انتظري وخرج رضي الله عنه، قالت أم رومان: إن مطعم بن عدى قد كان ذكرها على ابنه، فوالله ما وعد أبو بكر وعدا فأخلفه، فدخل أبو بكر على المطعم بن عدي وعنده امرأته أم الفتى، فقالت: يا ابن أبي قحافة لعلك مُصْب صاحبنا، مدخلَه في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك؟ فقال أبو بكر للمطعم بن عدي: أَقَوْل هذه تقول؟ قال: إنها تقول ذلك، فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عِدَتِه التي وعده، فرجع فقال لخولة: ادعِي لي رسول الله ﷺ، فدعته فزوجها إياه، وعائشة يومئذ بنت ست سنين، ثم خرجت خولة بنت حكيم فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت: ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه، قالت: وددِت، ادخلي إلى أبي فاذكري ذلك له، وكان شيخا كبيرا قد أدركه السن، قد تخلف عن الحج، فدخلت عليه فحيته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟ قالت: خولة بنت حكيم، قال: فما شأنك؟ قالت: أرسلني محمد بن عبدالله أخطب عليه سودة، فقال: كفء كريم، ماذا تقول صاحبتك؟ قالت: تحب ذلك، قال: ادعيها لي

فدعتها، قال: أي بنية، إن هذه تزعم أن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أتحبين أن أزوجك به؟ قالت: نعم، قال: ادعيه لي، فجاء رسول الله ﷺ فزوجها إياه، فجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج، فجعل يحثي في رأسه التراب، فقال بعد أن أسلم: لعمرك إني لسفيه يوم أحثي على رأسي التراب، أن تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة، قالت عائشة: فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج في السُنح، قالت: فجاء رسول الله ﷺ، فدخل بيتنا واجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتني أمي وإني لفي أرجوحة بين عَذْقَين تَرَجَّح بي، فأنزلتني من الأرجوحة، ولي جُمَيمة ففرقتها، ومسحت وجهي بشيء من ماء، ثم أقبلت تقودني حتى وقفتْ بي عند الباب، وإني لأنهج حتى سكن من نفسي ثم دخلت بي، فإذا رسول الله ﷺ جالس على سرير في بيتنا، وعنده رجال ونساء من الأنصار، فأجلستني في حجرة ثم قالت: هؤلاء أهلك، فبارك الله لك فيهم وبارك لهم فيك، قالت عائشة: فوثب الرجال والنساء فخرجوا، وبنى بي رسول الله ﷺ في بيتنا، ما نُحرت علي جزور ولا ذبحت علي شاة، حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله ﷺ إذا دار على نسائه، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين"، قال الحافظ ابن كثير: "وهذا السياق كأنه مرسل وهو متصل"، وقال الحافظ الذهبي: "إسناده حسن". كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول لعائشة رضي الله عنها: "لم ينكح النبي ﷺ بكرا غيرك" خرجه البخاري. وكانت هي رضي الله عنها تُظهر هذا الفضل، فتقول: "يا رسول الله، أرايت لو نزلت واديا وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجرة لم يؤكل منها، في أيها كنت تُرتع بعيرك؟ فيقول ﷺ: (في التي لم يُرتع منها) تعني: أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرا غيرها" خرجه البخاري. ولقد اختصت عائشة رضي الله عنها من بين سائر زوجات النبي ﷺ بنزول الوحي عليه وهو في لحافها، ودافع عنها ﷺ فقال لأم سلمة رضي الله عنها: (يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها) خرجه البخاري. وأخبرها النبي ﷺ أن جبريل يقرئها السلام، وعائشة رضي الله عنها هي التي قُبض النبي ﷺ بين سَحْرِها ونَحْرِها.

معاشر المؤمنين، لما عصت قريش وعتت عن أمر ربها، دعا عليهم رسول الله ﷺ، فضاقت بهم الحال، كما ضيقوا على أصحاب الشعب، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "إن قريشا استعصت على رسول الله ﷺ، وأبطئوا عن الإسلام، فقال ﷺ: (اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، قال: فأصابتهم سنة -أي: قحط وجدب- فَحَصَّت -أي: أذهبت- كل شيء، حتى أكلوا الجِيَف والميتة، حتى إن أحدهم كان يرى ما بينه وبين السماء، كهيئة

الدخان من الجوع، ثم دعا فكشف الله عنهم، ثم قرأ ابن مسعود هذه الآية: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾[الدخان:١٥]، قال: فعادوا فكفروا، فأُخروا إلى يوم القيامة، أو قال: فأخروا إلى يوم بدر) وفي رواية عنه أنه قال: (لما رأى رسول الله ﷺ من الناس إدبارا قال: اللهم سبعا كسبع يوسف، فأخذتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام، فجاء أبو سفيان وناس من أهل مكة فقالوا: يا محمد، إنك تزعم أنك بعثت رحمة وأن قومك قد هلكوا فادع الله لهم، فدعا رسول الله ﷺ، فسُقوا الغيث فأطبقت عليهم سبعا، فشكا الناس كثرة المطر فقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فانحدرت السحابة على رأسه، فسُقي الناس حولهم) رواه البخاري ومسلم والبيهقي في الدلائل. وروى البيهقي عن ابن عباس قال: (جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ يستغيث من الجوع، لأنهم لم يجدوا شيئا حتى أكلوا العِهْن بالدم، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون:٧٦] قال: فدعا رسول الله ﷺ حتى فرج الله عنهم، ثم قال البيهقي: "وقد رُوي في قصة أبي سفيان، ما دل على أن ذلك كان بعد الهجرة، ولعله كان مرتين والله أعلم".

ومن فوائد هذه القطعة من السيرة النبوية:

عظم هذه الكلمة لا إله إلا الله، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، فرسول الله ﷺ لم يدع عمه في ذلك الموقف إلا إليها، وكان ﷺ يقاتل الناس عليها، وأبى أبو طالب وغيره من صناديد قريش الإقرار بها لعلمهم أنها تهدم عبادة مَن دون الله من الأولياء والصالحين والجن وغيرهم، وبعض المسلمين اليوم يقولها وهو يذبح لغير الله كالجن وقبور الأولياء، ويدعو ويستغيث ويطلب المدد من المقبورين، وهو يقول لا إله إلا الله، فتبا لمن كان أبو جهل أعلم منه بمعنى هذه الكلمة، فهم كفار قريش لما قيل لهم: قولوا لا إله إلا الله، استكبروا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥].

ومن الفوائد: بيان حكمة الله في بقاء أبي طالب على دين قومه، مع دفاعه عن رسول الله ﷺ، إذ لو أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا تجرؤوا عليه وعلى ابن أخيه، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨].

ومن الفوائد: مضرة رفيق السوء، فقد أغوى أبو جهل أبا طالب وصده عن الإسلام، فكان يقول له عند موته: يا أبا طالب أتترك ملة عبدالمطلب؟ فأطاعه أبو طالب وعصى رسول الله ﷺ، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومن الفوائد: مضرة تقليد الآباء والأجداد، والتأسي بهم في الباطل والعادات القبيحة، وكان المشركون يعظمون ذلك، فأبو جهل احتج على أبي طالب بدين الآباء فأطاعه، أتترك ملة عبدالمطلب.

ومن الفوائد: أن العبرة بالخواتيم، فلو أسلم أبو طالب في آخر حياته لنفعه، فسبحان من لا يُسأل عما يفعل، ونسأله ﷻ الثبات على دين الإسلام وحسن الختام.

ومن الفوائد: أن الهداية بيد الله ﷻ، يصرف القلوب كيف يشاء، و﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥]، وهو أعلم بالشاكرين، وليست الهداية هذه للرسول ﷺ، ولا غيره من البشر، فههو أبو طالب، كان الرسول ﷺ يحب إسلامه فلم يسلم، ونزل قوله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[القصص:٥٦].

ومن الفوائد: بين شدة عذاب جهنم، فأبو طالب أهون أهل النار عذابا، في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه فكيف بغيره، فكيف بمن هو في الدرك الأسفل من النار، نعوذ بالله من نار جهنم.

ومن الفوائد: الإحسان إلى الأقارب ودعوتهم إلى الخير، كما فعل النبي ﷺ مع عمه.

ومن الفوائد: جواز استعانة المسلم بأقاربه في الدفاع عنه وإن كانوا كفارا، كما استعان النبي ﷺ بأبي طالب وبني هاشم في الدفاع عنه، لكنه لم يتنازل عن شيء من أمور الدين.

ومن الفوائد: أنه يحرم أن يستغفر المؤمن للمشركين ولو كانوا أقاربه، كما قال ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[التوبة:١١٣]، وإبراهيم عليه السلام وعد أباه أن يستغفر له، لكن لما تبين له عداوته لله تبرأ منه، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ ﴾[التوبة:١١٤].

ومن الفوائد: بيان فضائل أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، قال الإمام الذهبي فيها: "ومناقبها جمة، وهي ممن كمل من النساء، كانت عاقلة جليلة ديِّنة مصونة كريمة من أهل الجنة، وكان رسول الله ﷺ يثني عليها ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين".

ومن الفوائد: حفظه ﷺ للعهد، ووفاؤه لزوجه خديجة بعد موتها، فقد كان يصل خلائلها ويثني عليها.

ومن الفوائد: جواز مدح الرجل زوجته أمام ضرتها عند الحاجة، كما مدح النبي ﷺ خديجة عند عائشة.

ومن الفوائد: بيان فضل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقد كان ﷺ يدافع عنها، ولا يرضى أن يؤذى فيها، فتبا لأهل البدع الذين يؤذون رسول الله ﷺ في أزواجه وأهل بيته.

ومن الفوائد: فضيلة أبي بكر، فقد وصفته خولة بنت حكيم عند رسول الله ﷺ بأنه أحب الخلق إليه، وأقر ذلك رسول الله ﷺ.

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

الوقفة الرابعة عشرة: (خروج النبي ﷺ إلى الطائف):

أما بعد، فيقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[الزخرف:٣١-٣٢]، ذكر الله في الآية اعتراض المشركين، على الذي أنزله ربنا ﷻ فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: هلا كان إنزال القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم، ﴿مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ يعنون بهما: مكة والطائف، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وقتادة وغيرهم. وقد ذكر غير واحد منهم: "أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي"، وعن مجاهد أنه قال: "يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف"، قال الحافظ ابن كثير: "والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أيِّ البلدتين"، وهذا يدل أن الطائف أرض منعة وقوة، وأن بها أناسا من عظماء العرب، فلو أسلموا لتبعهم أقوامهم، ولهذا خرج رسول الله ﷺ إلى تلك القرية المنيعة المسماة بالطائف، يرجو النصرة والمنعة.

الطائف كانت متنزه أهل مكة، ومنها تُجبى الخيرات إليها، وكان أهلها على الشرك كسائر العرب، يعبدون وثنا يقال له اللات، وهو المذكور في قول ربنا ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾[النجم:١٩-٢٠]، قال الحافظ ابن كثير: "كانت اللات صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن جرير: "وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا"، وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا: اللَّات بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يلت للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه، وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدماها وجعلا مكانها مسجدا بالطائف"، نعم، لقد توجه رسول الله ﷺ إلى الطائف، ودخلها داعيا ومبشرا ونذيرا، فما الذي جرى له هناك صلوات الله وسلامه عليه؟

قال الإمام ابن إسحاق غفر الله له: "لما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تناله منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ﷻ،

فخرج إليهم وحده، فحدثني يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: لما انتهى رسول الله ﷺ عمد إلى نفر من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمَح، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله ﷻ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يَمْرُط –أي: يمزق- ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا أرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم فيما ذُكر لي: إن فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فَيُذْئِرهم –أي: يجرئهم- ذلك عليه فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وأَلجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتْبعه، فعمد إلى ظل حَبَلَة من عنب، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، فلما اطمأن قال فيما ذُكر لي: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك، أو تُحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك"، قال الحافظ ابن كثير: "هكذا أورد ابن إسحاق في كتابه السيرة هذا الدعاء من غير إسناد، بل ذكره معلقا بصيغة البلاغ فقال فيما ذكر لي" انتهى، ثم أورد رواية ابن عساكر مسندة، قال ابن إسحاق: "فلما رأى ابنا ربيعة عتبة وشيبة ما لقي، تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عداس، فقالا له: خذ قِطْفا من عنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس ثم ذهب به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: بسم الله ثم أكل، فنظر عداس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أي بلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال: نصراني وأنا رجل من أهل نِينَوى، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن

متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبيا وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه، قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس، ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه" وقد صحح حديث ابن إسحاق هذا بعض الباحثين، كصاحب السيرة الذهبية لقرائن ذكرها، لكن الشيخ الألباني رحمه الله ضعفه.

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبدالرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني، عن أبيه أنه أبصر النبي ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا، حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، قال: فسمعته يقرأ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾[الطارق:١] حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام، قال: فدعتني ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل، فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه".

ولقد كان رسول الله ﷺ يحدث بما جرى له في الطائف من الأذى، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة –والمراد بها: عقبة بالطائف، وليست عقبة منى التي اجتمع بها مع الأنصار– إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، ثم ناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا).

ذكر محمد بن إسحاق –غفر الله له، إمام أهل السيرة– سماع الجن لقراءة رسول الله ﷺ، وذلك مرجعه من الطائف حين بات بنخلة، وصلى بأصحابه الصبح، فاستمع الجن الذين

صُرفوا إليه قراءته هنالك، قال ابن إسحاق: "وكانوا سبعة نفر فأنزل الله فيهم قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[الأحقاف:٢٩]".

قال الإمام ابن كثير غفر الله له: "ثم دخل رسول الله ﷺ مكة مرجعه من الطائف في جوار المطعم بن عدي، وازداد قومه عليه حَنَقا وغيظا، وجرأة وتكذيبا وعنادا، والله المستعان وعليه التكلان، وقد ذكر الأموي في مغازيه أن رسول الله ﷺ بعث عبدالله بن أريقط إلى الأخنس بن شريق، فطلب منه أن يجيره بمكة، فقال: إن حليف قريش لا يجير على صميمها، ثم بعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره، فقال: إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب بن لؤي، فبعثه إلى المطعم بن عدى ليجيره فقال: نعم، قل له فليأت، فذهب إليه رسول الله ﷺ، فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج معه هو وبنوه ستة أو سبعة متقلدي السيوف جميعا، فدخلوا المسجد وقالوا لرسول الله ﷺ: طف، واحتَبَوْا بحمائل سيوفهم في المطاف، فأقبل أبو سفيان إلى المطعم بن عدي فقال: أمجير أم تابع؟ قال: لا بل مجير، قال أبو سفيان: إذن لا تُخفر، فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه، وذهب أبو سفيان إلى مجلسه، قال: فمكث أياما ثم أُذن له في الهجرة، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، توفي المطعم بن عدي بعده بيسير"، قال ابن كثير: "ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم أسارى بدر: (لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم سألني في هؤلاء النَّتْنى لوهبتهم له) خرجه البخاري. وما ذكره ابن إسحاق من إجارته النبي ﷺ، أورده الفاكهي بإسناد حسن مرسل كما في فتح الباري لابن حجر غفر الله له. وأما ما ذكره من استماع الجن للقرآن، فقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: وما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة برسول الله ﷺ وهو بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم

فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[الجن:١-٢]، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[الجن:١]".

معاشر المؤمنين، في هذه القطعة من سيرته ﷺ فوائد:

منها: أنه ﷺ لما دخل الطائف بدأ بأكابرها، لأن الناس تبع لهم، فعلى الداعي إلى الله ﷻ أن يعرف قدر أمير البلد وكبيرها فيبدأ به، ويحسن الاستئذان منه، بعد إطلاعه على أصول الدعوة ومقاصدها، ويخطأ من لا يفرق في الدعوة بين كبير وصغير، وأمير وغيره، ولقد أحسن الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب غفر الله له لما سلك هذا السبيل، فقد بدأ دعوته في الدرعية بالاتفاق مع أميرها محمد بن سعود على دعوة التوحيد، بعد أن بيَّنها له، واعترف له بالإمرة، وبشره بالنصر، فتم اتفاق الدرعية بين الأمير والعالم، وقامت على إثره دولة التوحيد والسنة، فلله الحمد والمنة، وقد خالف هذا بعض الجماعات الإسلامية الوافدة إلى بلادنا، التي تبدأ بالشباب، فتعزلهم شعوريا عن المجتمع وعلمائه وأمرائه، وتربيهم على مناهجها الحزبية الثورية، وتشككهم في إسلام بلادهم، ومن ثَمَّ تزُجُّ بهؤلاء الشباب في صراعات مع بلادهم وعلمائهم وولاة أمرهم، ولو أنهم تركوا التنظيمات السرية، والتربية المتشنجة، وفتاوى الظلام، والاجتماعات المريبةَ البعيدةَ عن مراقبة الوالد والعالم والناصح، لو أنهم تركوا ذلك، وأتوا البيوت من أبوابها، ووضعوا أيديهم بأيدي علمائهم وولاة أمرهم وكبرائهم لسلموا وأفلحوا، وآتت دعوتهم ثمرتها، و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾[الروم:٤].

ومن الفوائد: أنه ﷺ لما رأى إعراض ثقيف عن دعوته وما ردوا عليه قال: (اكتموا عني حتى لا يصل ذلك إلى كفار قريش فيشمتوا به) وهذا يدل على أن الحكمة تقتضي كتم بعض الأمور وعدم نشرها، لئلا تتضرر الدعوة ويشمَت بها خصومها، فهل يعي هذا كُتاب بعض مواقع الإنترنت، المتخصصة في تبادل نشر الفضائح؟ فاشتغلوا بذلك عن الانتصار للسنة والرد على المخالف لها، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن الفوائد: جواز قبول هدية الكافر، لأنه ﷺ قَبِل هدية ابني ربيعة شيبةَ وعتبة، لما بعثا إليه بعنقود عنب.

ومن الفوائد: أنه ﷺ لا يحقر أحدا في تبليغه رسالة ربه، فقد دعا الغلام النصراني المسمى بعداس، دعاه إلى الله وحاوره، وكان سبب ذلك تسميةَ الرسول ﷺ لما أراد الأكل، وهكذا الداعي إلى الله، يدعو إلى الله بقوله وفعله وخلقه.

وفي مجيء جبريل وملك الجبال للرسول ﷺ فوائد:

منها: إكرام الله لنبيه ﷺ، فقد بعث إليه ملك الجبال ليأمره بما شاء، فلو شاء أن يطبق على أهل مكة جبليها لفعل، وهذا يدل على عظيم مترلته عند رب العالمين، صلوات الله وسلامه عليه.

ومنها: بيان صبره وسلامة صدره ﷺ، وحرصه على الدعوة وهداية الخلق، وعدم انتصاره لنفسه، فإنه لما عُرض عليه إهلاكهم أبى ذلك، وطمع أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا.

ومنها: الحذر من مخالفته ﷺ، فإنها تجلب العقوبة والهلاك، قال الله ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

وفيها: إثبات وجود الملائكة، وأن لهم أعمالا أمرهم الله بها، فمنهم جبريل الموكل بالوحي، ومنهم ملك الجبال.

ومن الفوائد: إثبات وجود الجن، وأنهم يستمعون القرآن، وأن فيهم مؤمنين وكافرين كما قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾[الجن:١٤].

ومن الفوائد: حفظ الجميل، فإنه ﷺ حفظ للمطعم بن عدي معروفه وإجارته له عند دخوله مكة، وذكر له هذا الإحسان يوم انتصر على كفار قريش في بدر، فأخبر أن المطعم لو كان حيًّا وطلب إطلاق أسارى بدر لأطلقهم له، وهذا من شيم الكرام، وفي الحديث عنه أنه ﷺ أنه قال: (من لا يشكر الناس لا يشكر الله).

ومن الفوائد: جواز الاستعانة بالكفار عند الضرورة، لأنه ﷺ دخل في جوار وحماية مطعم بن عدي.

ومنها: بيان صبره ﷺ وجدِّه في الدعوة إلى الله، فإذا ما ضاقت به أرض وأعرض أهلها بحث عن غيرها، حتى هيأ الله له الأنصار أهل المدينة، كما سيأتي إن شاء الله ﷻ.

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب، في تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: "قد رأيت أن سبب عبادة اللات هو الغلو في قبره، حتى صار وثنا يُعبد، كما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين: ودٍّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر وغيرهم، وكما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين من الأموات وغيرهم اليوم، فإنهم غلوا فيهم، وبنوا على قبورهم القباب والمشاهد، وجعلوها ملاذًا لقضاء المآرب، وبالجملة: فالغلو في الصالحين، هو أصل الشرك في الأولين والآخرين إلى يوم القيامة، وقد أمرنا الله بمحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسَلْبِ خصائص الإلهية عنهم، وهذا

غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم، فلا نرفعهم فوق منزلتهم، ولا نحطهم منها، لما يعلمه الله في ذلك من الفساد العظيم" انتهى كلامه.

ومن الفوائد: أن طريق الدعوة محفوف بالمخاطر والمشاقّ والآلام، فليصبر الدعاة على ذلك وليبشروا بالأجر العظيم، فهو رسول الله ﷺ يحكي ما أصابه فيقول لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: (لقد لقيت من قومك ما لقيت) يعني: من الأذى، ثم ذكر إعراضهم وقال: (فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب) صلوات الله وسلامه عليه.

ومنها: أن الطائف أصبحت بعد ذلك دار إسلام، وصار أهلها أنصارا للدين، وكذلك مكة أسلم أهلها بعد شدة العداوة للرسول ﷺ، ومن السفه والجهل والعدوان: ما يفعله بعض الناس من تعيير أهل بلد بما كان فيها من جنايات الأمم السابقة بقرون، كمن يعيِّر أهل الطائف بما جرى للرسول ﷺ، مع أن من باشر ذلك الإيذاء من ثقيف أسلم وصاروا صحابة أطهار، وكذلك من يعيِّر أهل مكة الآن بما فعله صناديد قريش، أو يعيِّر أهل نجد بأن الشيطان دخل على قريش في دار الندوة، على صورة شيخ نجدي، مع أن هذا لم يثبت، وكذا من يعيِّر أهل مصر بمن كان فيها من الفراعنة، كل هذا من الجهل والسفه، وهو من أسباب الفرقة والشقاق، قال الله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[الإسراء:٥٣]، وكان من هديه ﷺ بيان فضائل أمصار الإسلام، فقد قال ﷺ: (الإيمان في أهل الحجاز)، وقال: (اللهم بارك لنا في يمننا وشامنا)، وقال عن هذه الجزيرة العربية: (إن الإيمان يَأْرِز ما بين المسجدين) يعني: مسجدي مكة والمدينة.

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

الوقفة الخامسة عشرة: (عرض الإسلام على القبائل وإسلام الأنصار):

أما بعد، فيقول الله ﷻ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[محمد:٣٨]، يقول الإمام ابن إسحاق غفر الله له: "قدم رسول الله ﷺ مكة –يعني: من الطائف– وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به، فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم إذا كانت، يعرض نفسه على القبائل، يدعوهم إلى الله ﷻ، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه، حتى يبيِّن عن الله ما بعثه به، عن ربيعة بن عباد الدؤلي –وكان جاهليا فأسلم– أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ، وقالوا: هذا عمه أبو لهب". قال الإمام الزهري: "فكان رسول الله ﷺ في تلك السنين، يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يئووه ويمنعوه، فلم يقبله أحد منهم، و لم يأت أحد من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلا يُصلحنا وقد أفسد قومه ولَفَظوه؟ وكان ذلك مما ذخره الله للأنصار وأكرمهم به، روى أبو نعيم والحاكم والبيهقي بسند حسن كما قال الحافظ ابن حجر، عن علي رضي الله عنه قال: "لما أمر الله رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، قال: ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوقار، وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات، فتقدم أبو بكر فسلم، قال علي: وكان أبو بكر مقدما في كل خير، فقال لهم أبو بكر: ممن القوم؟ قالوا: نحن بنو شيبان بن ثعلبة، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي، ليس بعد هؤلاء من عز في قومهم، وهؤلاء غُرَرُ الناس، وكان مفروق بن عمرو قد غلب عليهم لسانا وبيانا، فقال لأبي بكر: لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان قد بلغكم أنه رسول الله فههو ذا، فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، ثم التفت إلى رسول الله ﷺ فقال: إلام تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ فجلس، وقام أبو بكر يظله بثوبه، فقال ﷺ: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تئووني وتمنعوني وتنصروني حتى أُؤدي عن الله الذي أمرني به، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله، وكذَّبت رسول الله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني

الحميد، فقال مفروق بن عمرو: وإلى ما تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ -إلى قوله- ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥١-١٥٣]، فقال مفروق: وإلى ما تدعو أيضا يا أخا قريش، فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠]، فقال له مفروق: دعوت والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أُفِك قوم كذبوك وظاهروا عليك، ثم تكلم هانئ بن قبيصة شيخهم وصاحب دينهم فقال: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدَّقت قولك، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، لم نتفكر في أمرك، وننظرْ في عاقبة ما تدعو إليه، إن هذا زلة في الرأي، وطيشة في العقل، وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، وإن من ورائنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقدا، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر، ثم تكلم أحد سادتهم بنحو ذلك، فنهض رسول الله ﷺ، قابضًا على يدي أبي بكر، قال علي: ثم التفت إلينا ﷺ فقال: يا علي، أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية! ما أشرفها! بها يتحاججون فيما بينهم في الحياة الدنيا، قال: ثم دفعنا الى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ، قال: فسُر رسول الله ﷺ من معرفة أبي بكر رضي الله عنه بأنسابهم".

قال الإمام ابن إسحاق غفر الله له في قصة إسلام الأنصار ﷺ: "لما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينا هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج، أراد الله بهم خيرا، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسم قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام، أن يهود كانت معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا قد عزوهم -أي: غلبوهم- ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتَّبعه نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله ﷻ، قال بعضهم

لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدُّكم به يهود، فلا يسبقُنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنَقدم عليهم، وندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزَّ منك، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، قد آمنوا وصدقوا، قال: وهم فيما ذُكر لي ستة نفر كلهم من الخزرج، وهم أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبدالله بن ذئاب، قال: فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، حتى إذا كان العام المقبل، وافى الموسمَ من الأنصار اثني عشر رجلا، وهم أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث وأخوه معاذ وهما ابنا عفراء، ورافع بن مالك، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، وأبو عبدالرحمن يزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر، فهؤلاء عشرة من الخزرج، ومن الأوس اثنان وهما: عويم بن ساعدة، وأبو الهيثم مالك بن التَّيِّهان، ثم روى بسنده عن عبادة بن الصامت أنه قال: "كنت ممن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلا، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تُفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر"، وقد روى البخاري ومسلم هذا الحديث، وقوله: (على بيعة النساء) يعني: على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية، وهي المذكورة في قول ربنا ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الممتحنة:١٢]، فلما انصرف عنه القوم، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، قالوا: فنزل مصعب على أسعد بن زرارة، فكان يسمى بالمدينة المقرئ، فكان يصلي بهم، يقول عبدالرحمن بن كعب بن مالك: "كنت قائد أبي حين ذهب بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها، صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة، قال: فمكث حينا على ذلك، لا يسمع الأذان لجمعة إلا صلى عليه واستغفر له، قال: فقلت في نفسي:

والله إن هذا بي لعجز ألا أسأله، فقلت: يا أبت، ما لك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبي أمامة؟ فقال: أي بني، كان أول من جَمَّع بنا بالمدينة، في هَزْم النَبِيت من حرة بني بياضة، في نقيع يقال له: نقيع الخَضِمات، فقال: قلت: وكم كنتم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلا" رواه أبو داود وابن ماجه وحسنه الألباني.

وبعد ذلك بحين تمت بيعة العقبة الثانية، وخلاصتها على ما ذكره الإمام ابن إسحاق: "أن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين، مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة، من أواسط أيام التشريق، حين أراد الله بهم من كرامته، والنصر لنبيه ﷺ، يقول كعب بن مالك –وكان ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ-: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور رضي الله عنه سيدنا وكبيرنا، ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أواسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا: يا أبا جابر، إنك سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه، أن تكون حطبا للنار غدا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبا، قال كعب: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا، نُسيبة بنت كعب أم عمارة، وأسماء بنت عمرو بن عدي، قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبدالمطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب، فقال: يا معشر الخزرج –وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها– إن محمدا منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلمْ يا رسول الله فخذ لنفسك

ولربك ما أحببت، قال: فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، فوالذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحَلْقة –أي: السلاح- ورثناها كابرا عن كابر، قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله أبو الهيثم بن التَّيِّهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها –يعني: اليهود- فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم، قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا، يكونون على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

يقول جابر بن عبدالله رضي الله عنه: "مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يتَّبع الناس في منازلهم بعكاظ ومَجنة، وفي المواسم بمنىً يقول: من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر، فيأتيه قومه فيقولون: احذر احذر غلام قريش لا يفتنُك، ويمشي ﷺ بين رحالهم، وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعا، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويُخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلا، حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين، حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ فقال ﷺ: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة، قال: فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة –وهو من أصغرهم- فقال: رويدا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل، إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتلُ خياركم، وأن تَعضَّكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله، قالوا: أَمِطْ عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدا، ولا نُسْلَبُها أبدا،

قال: فقمنا إليه ﷺ فبايعناه، وأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة" رواه أحمد وقال ابن كثير: "إسناده جيد على شرط مسلم".

في الصحيحين من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة تخلفه عن غزوة تبوك أنه قال: "ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها".

معاشر المؤمنين، من فوائد هذه القطعة من سيرته ﷺ:

بيان حرصه ﷺ على الدعوة إلى الله بتلاوة آيات من القرآن الكريم، كما قال ربنا ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق:٤٥]، وكما قال ﷻ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩]، ولقد كان للقرآن أثر عظيم في اهتدائهم إلى الإسلام كما سمعنا، وهو كذلك بحمد الله إلى يومنا، فعلى الدعاة إلى الله الحرص على ذلك، ودعوة الناس إلى الله بالقرآن والسنة وأخبار النبي المصطفى ﷺ، فهذا والله خير من الدعوة إلى الله بأمور أخرى، كالدعوة بالقصص المعاصرة، أو الدعوة باعتراف المذنبين أمام الناس، وفي الأشرطة وفي برامج بعض القنوات، يعترفون أمام الناس بما اقترفوه من سحر وزنىً وفجور وخناء، حتى صار منهجا في الدعوة، لما يرون فيه من الإثارة، وليس هذا بصحيح، فإن النبي ﷺ قال: (كل أمتي معافىً إلا المجاهرين)، ولسنا بحاجة إلى هذه الطريقة الجديدة، وعندنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩]، فضلا عما تحدثه طريقة القصص المعاصي، من تهوين للمعصية، وتعريف للناشئين بطرق الوصول إليها، ومن آثارها: تصدير هذا الصنف لتوجيه الأمة، واعتلاؤهم منابر الدعوة، فيُجمع الناس مثلا لمحاضرة مفحط سابق، يشرح في ثنايا محاضرته كيفية أدائه تلك الحركات، فيتعلم صغارنا منه ما لا يحسن، ويفتح لهم بابا كان مغلقا. وقريب من منهج تلك القصص، حرص بعض الناس على الدعوة إلى الله بالفكاهات وإضحاك الجماهير ليجذبهم بزعمه، وقد سئل الشيخ الفوزان عن ذلك فأجاب بقوله: "هذا لا يجوز استعماله في الدعوة إلى الله، الدعوة إلى الله ليست ضحكا ولا مزاحا ولا ترفيها، إنما الدعوة إلى الله صدق وجد ومجالس ذكر، آيات وأحاديث وذكر الجنة والنار". وكذلك على الدعاة إلى الله، البعد عن الكلام المنمق، المجرد عن كلام الله ورسوله، ولتكن الدعوة بالقرآن والسنة، فهم الجن لما سمعوا القرآن آمنوا، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[الجن:١-٢].

ومن الفوائد: أنه ﷺ كان يقول للعرب في مواسمهم: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، فهذه دعوة رسول الله ﷺ، دعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، فليعتن الدعاة بهذا، وليكن التوحيد أصل دعوتهم، ومن الخطأ البعد عن بيان مسائل التوحيد والشرك، وإشغال الناس بمسائل السياسة، أو بالمواعظ الخالية عن بيان أصل الدين، ألا وهو توحيد رب العالمين.

ومن الفوائد: عدم اليأس في الدعوة إلى الله، فهو رسول الله ﷺ أعرضت عنه قبائل العرب سنوات، فلم ييأس بل دعا ودعا حتى استجاب له الأنصار ﷺ.

ومن الفوائد: أنه ﷺ كان في دعوته للقبائل يبحث عن مكان آمن يحمي أهله هذه الدعوة ورجالها، فكان يقول: (ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي) وبذلك نعرف فضل من يحمي الدعوة اليوم وينشرها في العالم، ويتبنى منهج أهل السنة والجماعة، وينفق على الدعوة والدعاة بسخاء، مع الأمن الذي ينعم به الدعاة إلى التوحيد والسنة، وهذا ما نراه بحمد الله في بلاد الحرمين، المملكة العربية السعودية، أعزها الله وكبت أعاديها آمين، وليس هذا بغريب، فقد استقبلت الدرعيةُ بأميرها محمدِ بن سعود ورجالها الأبرار، استقبلت داعية التوحيد الإمامَ المجدد محمد بن عبدالوهاب، قبل ثلاثمائة عام، ووجد فيها ملاذا وحصنا آمنا للدعوة، فانتشرت السنة، وأمن أهلها بحمد الله ﷻ.

ومن الفوائد: بيان صبره ﷺ على إيذاء الأقربين، فقد كان عمه أبو لهب يتبعه محذرا القبائل من الاستجابة لدعوته ﷺ، ولم ينشغل الرسول ﷺ به، ولا بمجادلته، بل مضى في بيان الحق، والنصح للخلق، وكذلك الدعاة إلى السنة اليوم، قد يُبتلون بأخ حاسد أو جهول، فليعرضوا عنه، عسى الله أن يشفيه، مع كشف كذبه وتزويره عند الحاجة.

ومن الفوائد: أنه ﷺ في عرضه الدعوة على القبائل الوافدة إلى مكة في موسم الحج، في هذا دليل على أن هذه الدعوة للناس كلهم، وليست خاصة بقريش، فهو ﷺ رسول للعالمين، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨].

ومن الفوائد: بيان نعمة الله بهذا الدين، الذي يجمع القلوب ويوحدها، كما حصل للأوس والخزرج، فقد اقتتلوا قبل الإسلام، في يوم بعاث حتى ذهب ساداتهم وأشرافهم، وكان بينهم العداء الشديد، فلما أسلموا صاروا إخوة في الله رحماء، قال الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[آل عمران:١٠٣]، وكذلك اليوم، لن تجتمع القلوب إلا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بفهم سلف الأمة.

ومن الفوائد: بيان جده واجتهاده ﷺ في الدعوة إلى الله، فقد كان يخرج إلى الطائف، ويطوف على قبائل العرب، ويتبع مواسمهم، حتى بلَّغ رسالة ربه ﷺ.

ومن الفوائد: بيان فضل الأنصار في قبولهم للحق، ونصرتهم للرسول ﷺ بالنفس والنفيس، ووفائهم بما عاهدوا عليه، فحُق لهؤلاء أن يقول فيهم رسول الله ﷺ: (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق)، ولقد أثنى عليهم ربنا في كتابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر:٩].

ومنها: أن بيعة العقبة الثانية، من أهم الأحداث في الإسلام، فقد فتحت طريق الهجرة إلى المدينة، وإنشاء دولة الإسلام.

ومنها: نصر الله لرسوله ﷺ بالأباعد في المدينة، وأبى الأقربون بمكة ذلك، ولله في ذلك حكمة، إذ لو بادر أقاربه لنصرته، لقيل: قوم أرادوا التفاخر برجل منهم وتعصبوا له.

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

الوقفة السادسة عشرة: (الهجرة النبوية 1):

أما بعد، فيقول الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[الحج:٣٩-٤٠]، ويقول ﷻ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[النساء:١٠٠]، نعم، إنها الهجرة من مكة إلى المدينة، إنها مفارقة الأهل والبلد والمال والأحباب. لم تكن الهجرة من مكة إلى المدينة سياحة رغب فيها المهاجرون، ولم تكن أرض مكة أرض وباء أو دار قلة ليفرح المهاجرون بنبأ الهجرة عنها، وإنما جاء أمر الهجرة تكليفا من تكاليف العقيدة التي آمنوا بها، وضرورة استلزمتها رسالة الإسلام، ووجوب إبلاغها. حين ضاقت مكة بهذه الدعوة، وآذى صناديدها من يؤمن بها، وأغلقوا الآفاق أمام انتشارها وإبلاغها للعالمين، كان لا بد من الهجرة لمكان آخر، يأمن فيه المؤمنون، وتقام فيه شعائر الدين.

فهذه الهجرة هجرة المؤمنين من مكة إلى المدينة النبوية لها أسباب:

منها: اضطهاد المؤمنين، فعند البخاري أن بلالا رضي الله عنه قال بعد هجرته للمدينة ومرضه بها: "اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء".

ومنها: طلب ما عند الله ﷻ، يقول خباب رضي الله عنه: "هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، ووجب أجرنا على الله ﷻ" خرجه البخاري. وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (استأذن النبيَ ﷺ أبو بكر في الخروج حين اشتد عليه الأذى فقال له: أقم، فقال: يا رسول الله أتطمع أن يؤذن لك؟ فكان رسول الله ﷺ يقول: إني لأرجو ذلك، فانتظره أبو بكر".

ومن أسباب الهجرة للمدينة: خوف الفتنة في الدين، يقول عطاء بن أبي رباح: "زرت عائشة رضي الله عنها مع عبيد بن عمير، فسألها عن الهجرة فقالت: لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله ﷺ، مخافة أن يُفتن فيه، فأما اليوم، فقد أظهر الله الإسلام، فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية" خرجه البخاري.

ومن الأسباب: تكذيب قريش لرسول الله ﷺ، فهو سعد بن معاذ يقول: "اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحبَّ إلي أن أجاهدهم فيك، من قوم كذبوا نبيك وأخرجوه من قريش" رواه البخاري.

ومما يؤكد صلاح قصد المهاجرين، أنه لم يكن ثمة أرض أوبأ من المدينة التي أمروا بالهجرة إليها، ففي البخاري عن عائشة ﵂ قالت: "قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله" خرجه البخاري كما تقدم. ولم يسلم المهاجرون من هذا الوباء، بل نالهم منه ما نالهم، ووُعِك له أبو بكر وبلال ﵄، وربما غيرهما، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله***والموت أدنى من شراك نعله.

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة***بواد وحولي أذخر وجليل

وهل أردنْ يوما مياه مَجنة***وهل يبدون لي شامة وطفيل.

يتذكر مكة وما فيها من الأماكن والأشجار.

وعلى إثر ما أصاب المسلمين، وما قد يصحبه من ضيق أو كره لأرض الهجرة، توجه رسول الله ﷺ إلى ربه بالدعاء فقال: (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حُمَّاها فاجعلها بالجحفة) خرجه الإمام البخاري.

ولقد كان خبر ومكان هجرته ﷺ معلوما عند الأمم السابقة، ففي حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه في قصة إسلامه، أن عالم النصارى قال له: "أظلك زمان نبي، هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجرا إلى أرض بين حرتين، بينهما نخلات" الحديث رواه الإمام أحمد وسنده صحيح.

وأعلم الله رسوله ﷺ بمكان الهجرة، فعند مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه أنه ﷺ قال: (رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهْلي إلى أنها اليمامة أو هَجَر، فإذا هي المدينة يثرب).

يقول الإمام ابن إسحاق غفر الله له: "لما أذن الله بالحرب بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[الحج:٣٩-٤٠] الآية، فلما أذن الله في الحرب، وبايعه هذا الحي من الأنصار، على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وآوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، فخرجوا أرسالا وأقام رسول الله ﷺ بمكة، ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة، فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بني مخزوم: أبو سلمة رضي الله عنه، وكانت هجرته إليها

قبل بيعة العقبة بسنة، حين آذته قريش مرجعه من الحبشة، فعزم على الرجوع إليها، ثم بلغه أن بالمدينة لهم إخوانا فعزم إليها، تقول أم سلمة ﵂: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحَّل لي بعيره ثم حملني عليه، وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة فقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذْ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبدالأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففُرق بيني وبين ابني وبين زوجي، قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريبا منها، حتى مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها، قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، قالت: فرد بنو عبدالأسد إلي عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله ﷻ، حتى إذا كنت بالتنعيم، لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبدالدار فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قالت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أوما معك أحد؟ قلت: ما معي إلا الله وابني هذا، فقال: والله ما لك من مَتْرك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المترل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ثم قيَّده في الشجر، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدَّمه فرحَّله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى يترل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلا، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعا إلى مكة، فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام، أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة" رواه ابن إسحاق، وعثمان بن طلحة هذا هو الذي أكرمه الله ﷻ بعد ذلك بالإسلام، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، دخل الكعبة، وأنزل الله ﷻ في عثمان وقرابته، وكانت مفاتيح الكعبة بأيديهم، أنزل الله ﷻ فيهم هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ

﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[النساء:٥٨]، فدفع رسول الله ﷺ المفاتيح بيده، فكانت فيه وفي بني عمه بني شيبة إلى يومنا.

يقول ابن اسحاق: "ثم كان أول من قدمها –يعني: المدينة– من المهاجرين بعد أبي سلمة: عامر بن ربيعة، معه امرأته ليلى بنت أبي حثْمة العدوية، ثم عبدالله بن جحش احتمل بأهله وبأخيه عبدٍ أبي أحمد، وأبو أحمد هو القائل في هجرتهم إلى المدينة:

ولما رأتني أم أحمد غاديا***بذمة من أخشى بغيب وأرهب

تقول فإما كنت لا بد فاعلا***فيمم بنا البلدان ولننأ يثرب

فقلت لها: ما يثرب بمظنة***وما يشأ الرحمن فالعبد يركب

إلى الله وجهي والرسولِ ومن يقم***إلى الله يوما وجهه لا يخيب.

يقول ابن إسحاق: "ثم خرج عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة حتى قدما المدينة، فحدثني نافع عن عبدالله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب أنه قال: اتعدتُّ لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص التناضِبَ، من أضَاة بني غفار فوق سَرِف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش عند التناضب، وحُبس هشام وفُتن فافتتن، فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرقَّ لها فقلت له: إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، قال: فقال عياش بن أبي ربيعة: أَبَرُّ قسم أمي ولي هناك مال فآخذه، قال عمر: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، قال: فأبى علي إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قلت: أما إذ فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تُعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض، عدوا عليه فأوثقاه رباطا، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن، قال عمر: فكنا نقول: لا يقبل الله ممن افتتن توبة، وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنزل الله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ

جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾[الزمر:٥٣-٥٥]، قال عمر: فكتبتها بيدي وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال هشام: فلما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى، أصعِّد فيها وأصوِّب -أي: أرفع وأخفض- ولا أفهمها حتى قلت: اللهم فهمنيها، فألقى الله في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة".

هذه الرواية الصحيحة تبين أن عمر رضي الله عنه هاجر سرا، وما اشتهر من أنه أعلن هجرته وتحدى الملأ من قريش ليس بصحيح، كما جاء في رواية تُنسب إلى علي رضي الله عنه قال فيها: "ما علمت أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهما، واختصر عنَزَته ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعا متمكنا، ثم أتى المقام فصلى متمكنا، ثم وقف على الحِلق واحدة واحدة وقال لهم: شاهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطِس -أي: الأنوف-، من أراد أن تثكله أمه، ويُيَتم ولده، وتُرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، قال علي: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين، علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه"، هذه الرواية غير صحيحة، في سندها ثلاثة من المجاهيل، كما قال الشيخ الألباني.

روى البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: "أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وكانوا يقرئون الناس القرآن، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ، ثم قدم رسول الله ﷺ".

وممن هاجر مع عمر زوجته وابنه عبدالله، فقد جاء في رواية عند البخاري: أن عمر حين فرض للمهاجرين الأولين أربعة آلاف، فرض لابن عمر ثلاثة آلاف وخمسمائة، فقيل له: هو من المهاجرين، فلم نقصته عن أربعة آلاف؟ فقال: إنما هاجر به أبواه، يقول: ليس هو كمن هاجر بنفسه". يقول ابن عمر رضي الله عنهما: "لما قدم المهاجرون الأولون، قبل مقدم رسول الله ﷺ، كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة، وكان أكثرهم قرآنا" خرجه الإمام البخاري.

وممن هاجر إلى المدينة صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[البقرة:٢٠٧]، قال ابن عباس

وأنس وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وعكرمة وجماعة: "نزلت هذه الآية في صهيب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإنْ أحبَّ أن يتجرد من ماله ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة وقالوا له: ربح البيع ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك؟ فأخبره أن الله أنزل فيه هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾[البقرة:٢٠٧]" كذا في تفسير الإمام الجليل، الحافظ ابن كثير غفر الله له وأسكنه فسيح جناته.

معاشر المؤمنين، في هذه القطعة من سيرته ﷺ فوائد:

منها: أن هذه الهجرة من أعظم ما جرى لأهل الإسلام، فقد كانت مذكورة في كتب الأمم السابقة كما في قصة سلمان الفارسي، وكما أخبر ورقة بن نوفل رسول الله ﷺ بذلك من أول يوم بُعث فيه، حين قال له لما جاءت به خديجة رضي الله عنها: (يا ليتني حيا إذ يخرجك قومك، فقال الرسول ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي) خرجه البخاري.

ومن الفوائد: أن الأمر بالهجرة توقيتا ومكانا من الوحي، ففي حديث هجرته ﷺ أنه قال لأبي بكر: (إني قد أُذن لي في الخروج) خرجه البخاري.

ومنها: تقديم محبة الله ومحبة رسوله ﷺ على محبة الأهل والمال والوطن، فإن الصحابة رضي الله عنهم استجابوا لما أمروا به، ففارقوا أموالهم وديارهم وهاجروا إلى الله ورسوله، وكم في هذا من المشقة على النفوس، لكن الله ثبتهم وقواهم، ولولا أن النفوس تحب الديار التي نشأت وترعرعت فيها، لما قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ ﴾[النساء:٦٦]، ولما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ ﴾[الحج:٣٩-٤٠]، ولما قالت بنو إسرائيل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ ﴾[البقرة:٢٤٦]، ويدل على ذلك أيضا، أن عقوبة الزاني البكر جلد مائة وتغريب عام، فعوقب بمفارقة الوطن والأحباب.

وحَبب أوطان الرجال إليهمُ***مآرب قضَّاها الشباب هنالكا.

فكيف إذا كان هذا الوطن بلدا إسلاميا، يُحكم فيه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتقام فيه شعائر الدين، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، كما في هذا الوطن العزيز على

نفوس المؤمنين، المملكة العربية السعودية، أعزها الله بالسنة، وخذل من عاداها. وإن مما شوش به خوارج العصر على عوام المسلمين وسعوا إليه: إيهام المؤمنين بأن حب الوطن ينافي التدين، ويسمونه حب الوثن، ويسمون الوطنية وثنية، هكذا يتبجحون، ولو كان هذا الحب لوطننا المسلم المحكم لشرع الله، بل قد سعوا -خيَّب الله سعيهم- إلى طمس هويتنا، بتسمية بلادنا بغير اسمها، فلا يقولون المملكة العربية السعودية، بل يسمونها الجزيرة العربية، أو بلاد الحرمين، وهذا حق أريد به باطل، فبلادنا هي بلاد الحرمين، وهي الجزيرة العربية، لكنهم يقولون ذلك فرارا من اسمها الذي يحمل المعاني السياسية المعروفة، ويشير إلى الدولة ذات القيادة الرشيدة، المملكة العربية السعودية، والتي في أعناقنا بيعة لولاة أمرها، ثم يظهرون هذه الألاعيب باسم الدين والجهاد، والسعي لإنشاء الخلافة، وكأننا نعيش في بلد كافر لا يُحكم فيه بشرع الله! ههو الشيخ ابن عثيمين رحمه الله وغفر له في شرحه لرياض الصالحين، في شرح الحديث الثالث: "يبين أن حبنا ودفاعنا عن وطننا لا يكون من أجل أنه وطن فقط، بل لأنه وطن إسلامي يحكم فيه بشرع الله، يقول: لكن المسلم يدافع عن دين الله، فيدافع عن وطنه، لا لأنه وطنه مثلا، ولكن لأنه بلد إسلامي، فيدافع عنه حماية للإسلام الذي حلَّ في هذا البلد، ثم قال رحمه الله وغفر له: أقاتل عن وطني لأنه وطن إسلامي، فأحميه من أعدائه وأعداء الإسلام، فبهذه النية تكون النية صحيحة والله الموفق" انتهى كلامه. وبعد هذا البيان الجلي من شيخنا غفر الله له، نسأل هؤلاء وفي أعناقهم بيعة شرعية لولاة أمرنا، نسألهم ماذا قدمتم لحماية هذا الوطن الإسلامي؟ الشيخ ابن عثيمين رحمه الله يقول: "أقاتل عن وطني لأنه وطن إسلامي"، ونحن نقول كما قال: نقاتل عن وطننا لأنه وطن إسلامي.

أيها المسلمون، الحذر الحذر من ألاعيب الجماعات والتنظيمات التي تتسمى بالإسلام، فإنها تُظهر التنكر للوطن المسلم، تظهره في صورة إنكار المنكر، والحرص على العقيدة والأمة وهمومها، ضاربة بأحاديث السمع والطاعة ولزوم الجماعة، والتحذير من الخروج على ولاة الأمر ولو باللسان، ضاربة بذلك كله عرض الحائط. ومن أساليبهم في تخذيلهم إياك عن حماية وطنك المسلم: إشغالك بهموم الأمة العامة، وجراحات المسلمين شرقًا وغربًا، إشغالك بذلك عن نصرة وطنك والنصح لولاة أمرك، فتراهم يتباكون على جراحات المسلمين في الشيشان وكوسوفا وغيرهما، ويشحنون الشباب والعامة لنصرة تلك القضية، ويلزمونهم بذلك متخطين ولاة أمرنا وعلماءنا، غير عابئين بحدودنا السياسية، وأما جراحاتنا نحن فلا بواكي لها عند هذه الفئة. عانت بلادنا من القتل والتفجير ما عانت، وقتل من القضاة

ورجال الأمن والمسؤولين من قتل على أيدي المفسدين، فسقطت المنشآت، ورُملت النساء، ويُتم الأطفال، وبكى الآباء والأمهات، لكنَّ المنتفعين من جراحات الأمة صامتون، ينتظرون الفرصة لسلب حب هذا الوطن المسلم من القلوب، وللعلم فإن بلادنا هي من أعظم البلاد نصرة للمستضعفين بما ينفعهم، لا بالشعارات الكاذبة والتصنع والتزلف للجماهير، كما تصنعه تلك الجماعات التي تتسمى بالإسلامية، قد اتخذت الدين ستارًا لتحقيق مآرب سياسية، وللوصول إلى كرسي الملك.

ومما ينبه عليه في هذا المقام، ضعف الحديث الذي اشتهر عند الناس ولفظه: "حب الوطن من الإيمان" فهو حديث ضعيف، وممن ضعفه الشيخ الألباني في المجلد الأول من سلسلته الضعيفة.

ومن أفعال هذه الفئة الضالة: أنهم إذا رأوك تحب هذا الوطن المسلم، وتدافع عنه، وتخلص له، وتتعبد لله بطاعة ولاة أمرك في غير معصية، وتحذر من أساليب المرجفين الخائنين للوطن، إذا رأوك كذلك قالوا: هذا موال للدولة، هذا مع الحكومة، نعم، نحن موالون لدولتنا المسلمة، ومع حكومتنا المسلمة، على من بغى واعتدى فأي جرم في هذا؟ أي جرم في هذا وفي أعناقنا لهم بيعة شرعية، تقتضي السمع والطاعة والإعانة على المعروف؟ وأما إذا زدت على ذلك فدعوت لولاة أمرك بالصلاح والمعافاة كما كان السلف الصالح يفعلون، وكما قال الفضيل بن عياض والإمام أحمد: "لو كان لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلا للسلطان لأن صلاحه لنفسه ولغيره" نعم، إذا رأوك تدعو لهم، قد يصفونك بالنفاق والمداهنة والعمالة، هذا ما أراده المفسدون ببلادنا ووطننا المسلم، المملكة العربية السعودية وغيرها، وسعوا لتحقيقه سنوات، سعوا للحيلولة بين الشعب والحكومة، بين الراعي والرعية، وإحداث الفتنة، فيهلك الحرث والنسل، لكن الله أبطل كيدهم، وفضح أمرهم، فجاء الحق وزهق الباطل، وتجلت الحقيقة لشبابنا وبناتنا ونسائنا ورجالنا وشيبنا وعجائزنا، علموا أن أولئك كانوا يمكرون بهم، ويسوقونهم إلى فتنة تُحرق الأخضر واليابس، علموا أن تحريش الشعب على ولاة أمرهم أسلوب رخيص لا يسلكه إلا الضالون، علموا أن دغدغة العواطف بدعاوى الإصلاح والمطالبة بحكم الشعب، علموا أن وراء ذلك مآرب أخرى، يريدون بها احتواء الشعب وعزله عن ولاة الأمر، ومن ثَم توجيهه إلى ما يريدون، ﴿ **جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾[الإسراء:٨١]، ﴿ **جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ** ﴾[سبأ:٤٩]، اللهم أعز بلادنا بالإسلام والسنة، واكبت أعاديها يا حي قيوم يا ذا الجلال والإكرام.

ومن فوائد هذه القطعة من سيرته ﷺ: بيان فضيلة الصحابة المهاجرين والأنصار، رجالا ونساءً، فالمهاجرون أُخرجوا في الله وهاجروا إلى الله ورسوله، فتركوا الدنيا لإقامة الدين، والأنصار آووا إخوانهم المهاجرين إلى المدينة ونصروهم، وقد أثنى الله على الطائفتين في سورة الحشر سورة بني النضير فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحشر:٨]، وهؤلاء هم المهاجرون، ثم قال مادحًا الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر:٩]، كم في الكتاب والسنة من الثناء العطر على الصحابة الأخيار، فهم خير أتباع الرسل، لقوله ﷺ: (خير الناس قرني)، وهم الذين جعل الله حبهم دينًا وإيمانًا، وبغضهم نفاقًا وعدوانًا، يقول رسولنا محمد ﷺ في الأنصار: (لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق) وكذلك المهاجرون لأنهم خير من الأنصار، ولقد عَلم ربنا بما سيجري من الفتن بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، ولهذا أجرى على لسان رسوله محمد ﷺ التحذير من الخوض فيما جرى بين الصحابة والوقيعة فيهم، فقال ﷺ: (دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهبًا ما بلغتم أعمالهم) رواه أحمد وهو في صحيح الجامع، وحذر رسول الله ﷺ من سبهم أو التنقص لأحد منهم فقال: (من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) رواه الطبراني وحسنه الألباني.

ومن هؤلاء الصحب الأخيار، الذين لعن رسول الله ﷺ من سبهم: كاتب الوحي، الأمين على كلام رب العالمين، صهر النبي وخال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وعن أبيه أبي سفيان وعن أمه هند، فقد أسلم أهل هذا البيت المبارك كلهم، وبايعوا رسول الله ﷺ، ونالوا شرف الصحبة، فلعنة الله وملائكته والناس أجمعين على من سبهم وتنقصهم، ولا نلعن إلا من لعنه رسول الله ﷺ كما تقدم في الحديث. يقول أبو زرعة الرازي -وهو من أجل شيوخ الإمام مسلم-: "من طعن في امرئ من أصحاب النبي ﷺ فهو زنديق" والزنديق هو المنافق.

وإن مما يُؤسف له ما تفوه به بعضهم فيما تناقلته بعض القنوات الفضائية، من ثلبٍ وطعن وجرأة على أهل هذا البيت المبارك آل أبي سفيان، بيت كاتب الوحي، وبعد هذه الجناية والطعن، يمجد ذلك المتكلم الدولة الباطنية المعادية لأهل السنة، المسماةَ بالفاطمية، وفاطمة

رضي الله عنها بريئة منها، دولة ظالمة قتَّلت المسلمين بمصر سنوات عديدة، وغيرت معالم الدين في القرن الرابع الهجري، وكان شعارها العداء لأصحاب رسول الله ﷺ، كان مناديهم في كل يوم يحرض الناس على سب الصحابة فيقول: من لعن وسب فله دينار وإردب، أي: من لعن الصحابة وسبهم فله جائزتان، ثم يأتي هذا فيقول: ينبغي أن يكون منهج الدول الإسلامية اليوم هو منهج الدولة الفاطمية، وقد ردت عليه اللجنة الدائمة بحمد الله. يقول الإمام أحمد رحمه الله وغفر له: "من رأيناه ينظر إلى الصحابة شزَرًا اتهمناه على الإسلام"، ويقول ابن المبارك في معاوية رضي الله عنه لما سئل عنه وعن عمر بن عبدالعزيز المشهور بالعدل يقول: "والله لغبار في أنف معاوية مع رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبدالعزيز، أتسوي بين رجل صحب النبي ﷺ ورجل لم يصحبه؟ وقال: ما أقول في رجل صلى خلف رسول الله ﷺ فقال النبي سمع الله لمن حمده، وقال هو ربنا ولك الحمد؟"، ومن فطرة السلف تحذيرهم من مقاصد من يطعن في معاوية رضي الله عنه، فإنه يريد بذلك التوصل إلى الوقيعة في بقية الأصحاب، يقول أبو توبة الحلبي -وهو ثقة من رجال البخاري-: "معاوية ستر لأصحاب رسول الله ﷺ، فمن هتك الستر اجترأ على ما وراءه" نعم، من طعن في معاوية اليوم، سيطعن غدًا في عثمان وبقية الأصحاب.

ومما يُؤسف له أيضًا أن من يسمون بالمفكرين الإسلاميين، شارك عدد منهم في هذا الجرم الأثيم، ففي كتاباتهم المبنية على فكرهم القاصر، فيها الظلم والتجني على عثمان ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ، ثم يزعمون -قادة تلك الجماعات- يزعمون أنهم يسعون لإقامة الخلافة الراشدة، وأيُّ خلافة سيعيدها لنا من يطعن في الخلفاء الراشدين، والصحابة الغر الميامين؟ فهو أحد المفكرين المسمَّيّن بالإسلاميين، ويسميه بعض الجهال بالشهيد، يقول هذا الشهيد المزعوم عن معاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهما صاحبي رسول الله ﷺ يقول: "إن معاوية وعمرو بن العاص يتعاملان بالغش والخداع والكذب والتدليس والنفاق وشراء الذمم" كما في كتابه كتب وشخصيات، الصفحة الثانية والأربعون بعد المئتين، ونحن لا نقول إلا ما قاله رسول الله صلى عليه وسلم: (من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين).

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

(الهجرة النبوية 2):

أما بعد، فيقول الله ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٤٠] نعم، لقد خرج رسول الله ﷺ من داره إلى الغار، ومعه الصديق رضي الله عنه، وبقي فيه أياما حتى خفَّ الطلب، عند البخاري من عائشة ﵂ في هجرة النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر قالت: "جهزناهما أحثَّ الجَهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُميت ذات النطاقين، قالت: فركبا فانطلقا، حتى لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل يقال له ثور، فكمن فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن، فيدَّلِج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يكادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وكانت لأبي بكر منحة من غنم، فكان يريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسْل وهو لبن منحتهما، حتى ينعِق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث. واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي هاديا خرِّيتا –والخريت: الماهر بالهداية– قد غَمَس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة يُعقبانه، والدليل ابن أريقط، فأخذ بهم طريق السواحل، حتى قدم المدينة".

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: قال أبو بكر رضي الله عنه: "خرجنا فأدلجنا فأحثثنا يومنا وليلتنا، حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فضربتُ بصري هل أرى ظلا نأوي إليه، فإذا أنا بصخرة فأهويت إليها، فإذا بقية ظلها، فسويته لرسول الله ﷺ، وفرشت له فروة، وقلت: اضطجع يا رسول الله فاضطجع، ثم خرجت أنظر هل أرى أحدا من الطلب، فإذا أنا براعي غنم فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش، فسماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة منها، ثم أمرته

فنفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته فنفض كفيه من الغبار، ومعي إداوة على فمها خرقة، فحلب لي كُثبة من اللبن، فصببت –يعني: الماء- على القدح حتى برد أسفله، ثم أتيت رسول الله ﷺ، فوافيته وقد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب ﷺ حتى رضيت، ثم قلت: هل آن الرحيل؟ فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم، إلا سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له".

وههو سراقة بن مالك يحكي ما جرى له مع رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر يقول: "جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية، مائة من الإبل لكل منهما، من قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قوم بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إني قد رأيت آنفا أسودة بالساحل، أُراها محمدا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلانا، انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة، فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فحططت بزُجِّه الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تُقرِّب بي حتى دنوت منهم، فعثَرت بي فرسي فخررت عنها فقمت، فأهويت إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام تُقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، فساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تُخرج يديها، فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عُثان ساطع مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أنْ سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني، إلا أنه قال: أَخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ" خرجه البخاري.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: "أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يُعرف ونبي الله شاب لا يُعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، قال: فيحسِب الحاسب

أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير، فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يا رسول الله، هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت نبي الله ﷺ فقال: اللهم اصرعه، فصرعه الفرس، ثم قامت تحمحم، فقال: يا نبي الله مرني بما شئت؟ فقال ﷺ لسراقة: قف مكانك لا تتركن أحدا يلحق بنا، فكان أول النهار جاهدا على نبي الله ﷺ، وكان آخر النهار مَسْلَحة له" خرجه البخاري.

قال سراقة رضي الله عنه: "والله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي، فخذ سهما منها، فإنك ستمر بإبلي وغنمي بموضع كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، فقال ﷺ: لا حاجة لي فيها" خرجه الإمام أحمد.

وفي هذه الرحلة المباركة، اجتاز رسول الله ﷺ في طريق هجرته على خيمة أم معبد، قال الحافظ ابن كثير غفر الله له: "وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا"، يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة، فانتهينا إلى حي من أحياء العرب، فنظر رسول الله ﷺ إلى بيت منتحيًا فقصد إليه، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة، فقالت: يا عبد الله، إنما أنا امرأة وليس معي أحد، فعليكما بعظيم الحي، إن أردتم القِرى –أي: الضيافة– قال: فلم يجبها وذلك عند المساء، فجاء ابن لها بأعنُز يسوقها، فقالت: يا بني، انطلق بهذه العتر والشفرة إلى هذين الرجلين، فقل لهما: تقول لكما أمي: اذبحا هذه وكلا وأطعمانا، فلما جاء قال له النبي ﷺ: انطلق بالشفرة وجئني بالقدح، قال: إنها قد عزبت وليس بها لبن، قال: انطلق، فجاء بقدح، فمسح النبي ﷺ ضرعها، ثم حلب حتى ملأ القدح، ثم قال: انطلق به إلى أمك، فشربت حتى رويت، ثم جاء فقال: انطلق بهذه وجئني بأخرى، ففعل بها كذلك، ثم سقى أبا بكر، ثم جاء بأخرى ففعل بها كذلك، ثم شرب النبي ﷺ، فبتنا ليلتنا ثم انطلقنا، فكانت تسميه المبارك، وكثرت غنمها حتى جَلبت جلَبًا إلى المدينة، فمر أبو بكر فرآه ابنها فعرفه فقال: يا أمه، هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه فقالت: يا عبد الله، من الرجل الذي كان معك؟ قال: أو ما تدرين من هو؟ قالت: لا، قال: هو نبي الله ﷺ، قالت: فأدخلني عليه، قال: فأدخلها، فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها، زاد ابن عبدان في روايته أنها قالت لأبي بكر: فدلني عليه، قال أبو بكر: فانطلقت معي، وأهدت لرسول الله ﷺ شيئا من أَقِط ومتاع الأعراب، قال: فكساها وأعطاها، قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت" رواه البيهقي وقال: "هذه القصة شبيهة بقصة أم معبد، والظاهر أنها هي" وحسن إسناده الحافظ ابن كثير.

ثم أتم الركب النبوي رحلته، يقول عروة بن الزبير: "إن رسول اله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين، كانوا تجارا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه، حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوما بعد أن أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهود على أُطْم –أي: حصن– من آطامهم لينظر إليه، فبَصُر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين –أي: عليهم الثياب البيض– يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون –أي: هذا حظكم وصاحب دولتكم الذي تنتظرونه–، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف –وهي بقباء– وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيِّي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث النبي ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأُسس المسجد الذي أُسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس، حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِرْبَدًا للتمر –أي: مكانا يُجفف فيه التمر– لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المترل، ثم دعا ﷺ الغلامين، فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى ﷺ أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول:

هذا الحمال لا حمال خيبر***هذا أبر ربنا وأطهر.

ويقول:

اللهم إن الأجر أجر الآخره***فارحم الأنصار والمهاجره".

خرجه الإمام البخاري.

وما أحسن ما قال أبو قيس صرمة بن قيس –رضي الله عنه أحد شعراء الأنصار– في قدوم رسول الله ﷺ، ونصرهم إياه، ومواساتهم له ولأصحابه ﷺ أجمعين:

ثوى في قريش بضع عشرة حجةً***يُذكِّر لو يلقى صديقا مواتيا

ويعرض في أهل المواسم نفسه***فلم ير من يؤوي و لم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه***وأصبح مسرورا بطيبة راضيا
فأصبح لا يخشى من الناس واحدا***قريبا ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حل مالنا***وأنفسنا عند الوغا والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم***جميعا ولو كان الحبيب المصافيا.

يقول أنس رضي الله عنه في وصف قدومه ﷺ المدينة وفرح الأنصار به: "أقبل إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف –أي: قد شابت لحيته، ويعرفه الناس لتردده إليهم في التجارة– قال: ونبي الله شاب لا يُعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ قال: هذا الرجل يهديني السبيل، فترل رسول الله ﷺ جانب الحرة، ثم بعث إلى الأنصار فجاؤوا إلى نبي الله ﷺ وأبي بكر فسلموا عليهما وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب نبي الله ﷺ وأبو بكر، وحفُّوا دوهما بالسلاح، فقيل في المدينة: جاء نبي الله، جاء نبي الله، فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب، فقال ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، قال ﷺ: فانطلق فهيئ لنا مقيلا، قال: قوما على بركة الله، فلما جاء نبي الله جاء عبدالله بن سلام –وكان حبرا من أحبار اليهود– جاء يسأله عن أشياء فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الرجل يترع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال ﷺ: أخبرني به جبريل آنفا، قال ابن سلام: نعم، ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[البقرة:٩٧]، قال ﷺ: أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد، فقال عبدالله بن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل يعلموا أني أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فِيَّ ما ليس في، فأرسل نبي الله ﷺ، ودخل عبدالله البيت، فأقبلوا فدخلوا عليه فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود ويلكم، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقا، وأني جئتكم بحق

فأسلموا، فقالوا: ما نعلمه، ما نعلمه، قال: فأي رجل فيكم عبدالله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال ﷺ: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم أعاذه الله من ذلك، قال ﷺ: يا ابن سلام اخرج عليهم، فخرج عبدالله بن سلام إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فقالت اليهود: شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه، فقال رضي الله عنه: يا معشر اليهود اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا له: كذبت، وفي رواية قالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه، قال عبدالله بن سلام: فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله، فأخرجهم رسول الله ﷺ".

يقول عبدالله بن سلام رضي الله عنه وأرضاه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة: "انجفل الناس إليه فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام" رواه أحمد والترمذي وصححه.

نعم، لقد فرح الكبار والصغار، الرجال والنساء، بقدوم الركب النبوي ودخوله المدينة، يقول أنس رضي الله عنه: "إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئا، ثم يقولون: جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئا، قال: حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر، فكمَنَّا في بعض حرار المدينة، ثم بعث رجلا من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعَين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة، حتى إن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو أيهم هو؟ فما رأينا منظرا قط شبيها به يومئذ".

وكان أنس رضي الله عنه يقول: "لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه النبي ﷺ أظلم منها كل شيء) خرجه الترمذي.

وقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في هجرة رسول الله صلى الله عليه من مكة إلى المدينة، وما حاز الأنصار من الشرف والفضل:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم***وقُدِّس من يسري إليهم ويغتدي
ترحل عن قوم فزالت عقولهم***وحلَّ على قوم بنور مُجَدَّدِ
وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا***عمىً وهداةٌ يهتدون بمهتدِ

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله***ويتلو كتاب الله في كل مشهدِ
وإن قال في يوم مقالة غائب***فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغدِ
لِيَهْنِ أبا بكر سعادةُ جده***بصحبته، من يُسعد الله يسعدِ.

معاشر المؤمنين، من فوائد هذه القطعة من السيرة النبوية العطرة ما يأتي:

من فوائدها: أن المدينة شرُفت بهجرته إليها ﷺ، وصارت كهفا لأولياء الله وعباده الصالحين، ومعقلا وحصنا منيعا للمسلمين، ودار هدىً للعالمين، والأحاديث في فضلها كثيرة: منها: قوله ﷺ: (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها) خرجاه في الصحيحين.

ومن فوائدها: أن تأريخ المسلمين كان من هجرته ﷺ، قال الحافظ ابن كثير: "اتفق الصحابة ﭫ في سنة ست عشرة وقيل سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة، في الدولة العمرية، على جعل ابتداء التأريخ الإسلامي من سنة الهجرة، وذلك أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه رُفع إليه صك –أي: حجة- لرجل على آخر، وفيه أنه يحل عليه في شعبان، فقال عمر: أي شعبان؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها أو السنة الماضية أو الآتية؟ ثم جمع الصحابة فاستشارهم في وضع تأريخ يتعرفون به حلول الديون وغير ذلك، فقال قائل: أرخوا كتأريخ الفرس فكره ذلك، وكانت الفرس يؤرخون بملكوهم واحدا بعد واحد، وقال قائل: أرخوا بتأريخ الروم وكانوا يؤرخون بِمُلك إسكندر المقدوني فكره ذلك، وقال آخر: أرخوا بمولد رسول الله ﷺ، وقال آخرون: بل بمبعثه، وقال آخرون: بل بهجرته، وقال آخرون: بل بوفاته ﷺ، فمال عمر رضي الله عنه إلى التأريخ بالهجرة، لظهوره واشتهاره، واتفقوا معه على ذلك" انتهى كلامه. فحري بالمسلمين أن يحرصوا على تأريخهم الذي سنه لهم أصحاب رسول الله ﷺ، وليحذروا الالتزام بالتواريخ غير الإسلامية، حتى لا يُهجر تأريخ المسلمين.

ومنها: أن الركاب النبوي لما حل بالمدينة، كان أول نزوله بها في دار بني عمرو بن عوف وهي بقباء، قال ابن كثير: "والأشهر ما ذكره ابن إسحاق وغيره، أنه ﷺ أقام بقباء من يوم الإثنين إلى يوم الجمعة، وقد أسس في هذه المدة المختَلف في مقدارها مسجد قباء، وهو مسجد شريف فاضل، نزل فيه قوله ﷻ: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة:١٠٨]، وقد كان الرسول ﷺ يزوره فيما بعد ويصلي فيه، وكان يأتي قباءً كل سبت، تارة راكبا وتارة ماشيا، وفي الحديث:

(صلاة في مسجد قباء كعمرة) رواه الترمذي وابن ماجه، فكان هذا المسجد أول مسجد بني في الإسلام بالمدينة، بل أول مسجد جُعل لعموم الناس في هذه الملة" انتهى كلامه.

ومن الفوائد: بيان زهده ﷺ في الدنيا وحرصه على الآخرة، يقول ابن عمر رضي الله عنهما عن المسجد النبوي: "كان على عهد رسول الله ﷺ مبنيًّا باللبن وسقفه الجريد وعمده خشوب النخل". ومن زهده ﷺ: أنه بني له حول مسجده الشريف حجر لتكون مساكن له ولأهله، وكانت قصيرة البناء، قال الحسن البصري –وكان غلاما مع أمه خَيْرَة مولاة أم سلمة–: "لقد كنت أنال أطول سقف في حُجر النبي ﷺ بيدي، وكان الحسن ضخما طوالا".

ومنها: تواضعه ﷺ، وترغيبه في الخير بقوله وفعله، قال ابن إسحاق في بناء المسجد النبوي: "عمل فيه رسول الله ﷺ، ليرغب المسلمين في العمل، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه، فقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبي يعمل***لذاك منا العمل المضلل".

ومن الفوائد: مشروعية استقبال الأكابر وتوقيرهم، كما خرج الصحابة لاستقبال رسول الله ﷺ.

ومنها: أن المسلم إذا رأى ما يسره أو يعجبه يكبر أو يسبح، وقد كبر المسلمون عند دخوله ﷺ المدينة.

ومنها: فضيلة أبي أيوب حيث نزل الرسول ﷺ عنده، حتى بني له بيت وانتقل إليه، وقد حصل لبني النجار مثل ذلك.

ومنها: بيان عظيم منزلة المسجد في الإسلام، فقد كان بناؤه أول عمل قام به رسول الله ﷺ بعد قدومه المدينة.

ومن الفوائد: ذم اليهود فإنهم يمدحون من كان معهم على الباطل، ويسبون من تمسك بالحق وانقاد له، ففي مجلس واحد مدحوا عبدالله بن سلام بأعظم المدح، فلما علموا بإسلامه واتباعه الحق ذموه بأقبح ما عندهم، ووالله (لتتبعن سنن من كان قبلكم) كما قال رسول الله ﷺ. وقد وُجد في زماننا من شابه اليهود في هذه الخصلة الذميمة، من المتأثرين بأفكار الجماعات الحزبية الوافدة، المبنية على منهج الخوارج الثوري، تراهم يمدحون من كان معهم أو يظنون أنه معهم وليس هو كذلك، ويرفعونه إلى عنان السماء، ويصفونه بالألقاب المفخمة، وكأنما هو عالم زمانه، فإذا ما تبين له حالهم وحذر من حزبياتهم انقلبوا عليه، ووقعوا في عرضه، وطعنوا في نيته، وتتبعوا فتاويَه، بحثا عن زلة له أو سقطة، ليشنِّعوا عليه

ويصرفوا الناس عنه، وما علموا أن من رفعه الله بالعلم والسنة، لن يخفضه الجهال المغرضون، فيا عجبا لكم، شابهتم اليهود في اتباع الهوى، بالأمس تقولون عن رجل إنه سلطان العلماء، فلما تجرد للحق ونصح للخلق وبين ضلالكم انقلبتم عليه وقلتم إنه عالم السلاطين! وللأسف أن بعض المنتسبين للسنة وهم قلة بحمد الله، شابهوا المتحزبة في تقلبهم مدحا وذما، فيمدحون من يظنونه معهم في مسألة مما اختلفوا فيه، فإذا خالفهم انقلبوا عليه ونسوا سابقته وقاموا وشنعوا، ووصفوه بالألقاب المنفرة، وحرضوا الشباب الأغرار عليه، في تحزب مقيت مخزٍ، فلم يعد لهم مصداقية، ولا يوثق بمدحهم وذمهم بعد ذلك، والمنهج السلفي بريء من هؤلاء المتقلبين، وهم لا يمثلون إلا أنفسهم، ولقد لبس عليهم الشيطان فأوهمهم أنهم ينتصرون للسنة، وإنما ينتصرون لأنفسهم، ويضرون دعوتهم، وما يقع في بعض المنتديات التي تتدعي السنة، يكشف لك هذا الخلل، والتقلب المخزي الحزبي في مدح الناس ثم ذمهم، فقلب النظر فيها متجردا، وسترى ما يسوء ويفسد، ويفرق أهل السنة، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾[الشورى:١٤].

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...

(الهجرة النبوية 3):

أما بعد، فيقول الله ﷻ مخاطبا نبيه محمدا ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[الإسراء:٨٠]، نعم، إنها هجرة رسول الله محمد ﷺ.

أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، و لم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبس أو فُتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن الرسول ﷺ في الهجرة فيقول رسول الله ﷺ: (لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبا) فيطمع أبو بكر أن يكونه.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "كان رسول الله ﷺ بمكة، ثم أُمر بالهجرة وأنزل عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[الإسراء:٨٠]" رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححاه. وقد فسر العلماء مدخل الصدق بمدخل رسول الله ﷺ إلى المدينة حين هاجر إليها، ومخرج الصدق مخرجه، من مكة حين خرج منها مهاجرا إلى المدينة، واختاره الإمامان ابن جرير وابن كثير. وقال الإمام ابن كثير في الآية: "أرشده الله وألهمه أن يدعو بهذا الدعاء، أن يجعل له مما هو فيه فرجا قريبا ومخرجا عاجلا، فأذن له ﷻ بالهجرة إلى المدينة النبوية، حيث الأنصار والأحباب، فصارت له دارا وقرارا، وأهلها له أنصارا".

ومما يدل على أن هجرته ﷺ كانت بوحي وإذن من رب العالمين ما ورد في البخاري: "من أنه ﷺ استأذن على أبي بكر فأذن له ثم قال: إني قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: نعم".

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين" خرجه البخاري.

يقول الحافظ ابن كثير: "وقد كانت هجرته ﷺ في شهر ربيع الأول، سنة ثلاث عشرة من بعثته، وذلك يوم الإثنين، كما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: (ولد نبيكم ﷺ يوم الإثنين، وخرج من مكة يوم الإثنين، ونبئ يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين، وتوفي يوم الإثنين) رواه الإمام أحمد".

يقول الإمام ابن إسحاق غفر الله له: "لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا منهم منعة، فحذِروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب، التي كانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيها، يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه، ولم يتخلف أحد من أهل الرأي والحجا منهم، ويقال: إن وليهم وشيخهم إبليس حضرهم في صورة شيخ جليل من أهل نجد، وذلك لأن قريشا منعت أهل تهامة من الدخول في رأيهم، لأن هواهم مع محمد، وسبب ثان ألا وهو ما لأهل نجد من منزلة عند العرب وشجاعة وحسن رأي، فلذا تمثل الخبيث في صورة من يُقبل منه، كما أنه يتمثل لبعض الناس في صورة الصالحين، فيزعم أنه الخضر أو غيره من الأنبياء والأولياء، وكان ذلك اليوم يسمى بيوم الزحمة، فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيا، قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء، الذين كانوا قبله، زهيرا والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم، فقال إبليس: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فتشاوروا ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا، فرغنا منه فأصلحنا أمرنا، فقال إبليس: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم، ويأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأيا غير هذا، فقال أبو جهل: والله إن لي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا وما هو يا أبا الحكم: فقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى جلدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل –أي: الدية– فعقلناه لهم، فقال إبليس: القول ما قال

الرجل، هذا الرأي ولا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له، فلما كانت عتمة من الليل، اجتمعوا على بابه ﷺ، يرصدونه متى ينام فيثبون عليه".

قال محمد بن كعب القرظي غفر الله له: "لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل قال وهم على بابه: إن محمدا يزعم أنكم إن بايعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأَرْدُن، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها".

قال: "فخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: نعم، أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، وأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ -إلى قوله- وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[يس:١-٩]، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمدا، فقال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش مسَجًّيا ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدثنا" رواه ابن إسحاق ورجاله ثقات وهو مرسل حسن، وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأورده ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد، وأورده أيضا صاحب السيرة الصحيحة.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "شرى علي نفسه ولبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه، وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ -يعني: بالحجارة- وقد كان رسول الله ﷺ ألبسه برده، وكانت قريش تريد أن تقتل النبي ﷺ، فجعلوا يرمون عليا ويرونه النبي ﷺ وقد لبس برده، وجعل علي يتضور -أي: يتأوه ويضج من ألم الحجارة له- فإذا هو علي، فقالوا: إنك للئيم، إنك لتتضور وكان صاحبك لا يتضور، ولقد استنكرناه منك" أخرجه الحاكم وصححه، وصححه العلامة أحمد شاكر أيضا.

يقول ابن القيم رحمه الله وغفر له وأسكنه فسيح جناته: "جاءه ﷺ جبريل بالوحي من عند ربه فأخبره بذلك -أي: باجتماعهم على قتله- وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة،

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر نصف النهار في ساعة لم يكن يأتيه فيها، متقنعا –أي: مغطيا رأسه– فقال له: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك يا رسول الله، فقال ﷺ: إن الله قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ فقال ﷺ: نعم، فقال أبو بكر: فخذ بأبي وأمي إحدى راحلتي هاتين، فقال ﷺ: بالثمن، بالثمن".

قال ابن إسحاق: "ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر وآل أبي بكر، أما علي فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه، إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته".

نعم، لقد خرج رسول الله ﷺ ومعه صاحبه الصديق أبو بكر رضي الله عنه، خرجا مهاجرين إلى الله ﷻ، راغبين فيما عنده، قاصدين نصرة دينه، فارقا مكة وهي أحب البلاد وخير البلاد، في الحديث أن رسول الله ﷺ وقف على الحزورة وهو موضع بمكة وقال: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت) رواه أحمد وهو في صحيح الجامع. وقال ﷺ في مكة: (ما أطيبك من بلد وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك) رواه الترمذي وهو في صحيح الجامع أيضا. تقول عائشة رضي الله عنها في خروج النبي ﷺ وأبي بكر: "جهزناهما أحث الجهاز فصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين رضي الله عنها، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن –أي: حاذق سريع الفهم–، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، لا يسمع أمرا يكادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحةً من غنم، فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما، حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، فكانا في الغار ثلاثة أيام ليسكن الطلب عنهما، وذلك لأن المشركين حين فقدوهما ذهبوا في طلبهما كل مذهب من سائر الجهات، وجعلوا لمن ردهما أو أحدهما مائة من الإبل، واقتصوا آثارهما حتى اختلط عليهم، فصعدوا الجبل الذي هما فيه وجعلوا يمرون على باب الغار، فتُحاذى أرجلهم لباب الغار ولا يروهما، حفظا من الله لهما، فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ وهما في الغار: "يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال

ﷺ: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، وأنزل الله في ذلك قوله: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة:٤٠]".

ولقد ذكر الله تآمر الملأ من قريش على رسوله محمد ﷺ، وكيف أنجاه الله وأبطل مكرهم وكيدهم، قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾[الأنفال:٣٠]. قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: "تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فبات علي على فراش رسول الله ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبون النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوه عليا رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل، اختلط عليهم فصعدوا الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه! فمكث فيه ثلاث ليال" رواه أحمد وقال الحافظ ابن كثير: "هذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ"، وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري، وقال ابن القيم غفر الله له: "مضى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور، فدخلاه وضرب العنكبوت على بابه" انتهى كلامه.

روى ابن عساكر: أن حسان بن ثابت مدح أبا بكر فقال:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد***طاف العدو به إذ صعَّد الجبلا

وكان حب رسول الله قد علموا***من البرية لم يعدل به رجلا.

يقول ابن أبي مليكة: "إن النبي ﷺ لما خرج هو وأبو بكر إلى ثور، فجعل أبو بكر يكون أمام النبي ﷺ مرة وخلفه مرة، فسأله النبي ﷺ عن ذلك فقال: إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك، حتى إذا انتهى إلى الغار من ثور قال أبو بكر: كما أنت حتى أدخل يدي فأحسه وأقصه، فإن كانت فيه دابة أصابتني قبلك، قال نافع: فبلغني أنه كان في الغار جحر فألقم أبو بكر رجله ذلك الجحر، تخوفا أن

يخرج منه دابة أو شيء يؤذي رسول الله ﷺ" رواه البغوي وقال الحافظ ابن كثير: "هذا مرسل وقد ذكرنا له شواهد أخر في سيرة الصديق رضي الله عنه".

وقد قال العلامة يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي، الذي وصفه ابن القيم بأنه حسان السنة في وقته، وصف حال أبي بكر رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ في الغار، وذكر بذله نفسه في الذب عنه فقال:

وخيرهم الصدّيق إذ هو منهمُ***إلى السبق في الإسلام والبرِّ أسرعُ

وفي ليلة الغار افتداه بنفسه***حذارًا عليه من أراقم تلسعوا

وأتحفه بالبكر عائشة التي***براءتها في سورة النور تُسمعُ

فكان له صهرًا وصلّى وراءه الـــ***ـــنبي صلاة الصبح والصحب أجمعُ

وردّ فريق الردّة الزائغَ الذي***لفرض زكاة المال أصبح يمنعُ

إلى أن أقام الدين بعد اعوجاجه***وأضحى حِمى التقوى به وهو مُمْرَعُ

رضينا به بعد النبي خليفةً***على عقده كل الصحابة أجمعوا".

رضي الله عنهم وأرضاهم.

تقول أسماء بنت أبي بكر لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر: "أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل، فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي، قالت: فرفع أبو جهل يده وكان فاحشا خبيثا، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي ثم انصرفوا"، وروى ابن إسحاق عنها أنها قالت: "لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم، فانطلق بها معه قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال: والله إني لأُراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: قلت: كلا يا أبة، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا، قالت: وأخذت أحجارا فوضعتها في كوة في البيت، كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبا، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبة ضع يدك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه فقال: لا بأس إذ كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم، قالت: ولا والله ما ترك لنا شيئا، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك".

ومما ينبه عليه في هذا المقام أمور متعلقة بهجرة رسول الله ﷺ لا تثبت ومنها:

أولا: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع إلي، فأسكني في أحب البقاع إليك) رواه الحاكم، وقال الذهبي: "إنه موضوع" أي: مكذوب، وقال ابن عبدالبر: "لا يختلف أهل العلم أنه منكر موضوع".

ثانيا: قال الإمام ابن كثير في تاريخه: "حكى ابن جرير عن بعضهم أن رسول الله ﷺ سبق الصديق في الذهاب إلى غار ثور وأمر عليا أن يدله على مسيره ليلحقه، فلحقه في أثناء الطريق، وهذا غريب جدا، وخلاف المشهور من أنهما خرجا معا".

ثالثا: روي أن أبا بكر رضي الله عنه سد كل جحر في الغار، وبقي منها جحر واحد، فألقمه كعبه، فجعلت الأفاعي تنهشه ودموعه تسيل، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠]" أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، وقال الحافظ ابن كثير: "وفي هذا السياق غرابة ونكارة".

رابعا: قال الإمام ابن كثير: "ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك –يعني: قوله: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا- قال له رسول الله ﷺ: (لو جاؤونا من ههنا لذهبنا من ههنا، فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه" وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوي ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئا من تلقاء أنفسنا، ولكن ما صح أو حسُن سنده قلنا به والله أعلم.

خامسا: روي أن أبا بكر قال لابنه: "يا بني، إن حدث في الناس حدث فأت الغار الذي رأيتني اختبأت فيه أنا ورسول الله ﷺ، فكن فيه فإنه سيأتيك فيه رزقك غدوة وعشية" أخرجه البزار، وفي سنده موسى بن مطير القرشي، قال فيه الحافظ ابن كثير: "هذا ضعيف متروك، كذبه يحيى بن معين، فلا يقبل حديث" والله أعلم.

سادسا: روي أن المشركين لما كانوا عند الغار تقدم أحدهم ثم رجع، فقالوا: ما ردك أن تنظر في الغار؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أنه ليس فيه أحد، فسمعها النبي ﷺ، فعرف أن الله درأ عنهما بالحمامتين، فبرَّك عليهما، وأحضرهما إلى الحرم فأفرخا كما ترى، وفيه: أن جميع حمام مكة من نسل تينك الحمامتين، وهذا الحديث لا يثبت، في سنده عون بن عمرو وهو الملقب بعوين، قال فيه يحيى بن معين: "لا شيء"، وقال البخاري: "منكر الحديث مجهول"، وفي سنده أيضا أبو مصعب المكي، قال ابن حجر: "لا يعرف"، وقال الحافظ ابن كثير: "وهذا حديث غريب جدا من هذا الوجه".

معاشر المؤمنين، في هذه القطعة من سيرته ﷺ فوائد:

منها: أن الله أنزل في هجرته ﷺ قوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾[الإسراء:٨٠]، قال الشيخ عبدالله بن الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب في اختصاره لسيرة رسول الله ﷺ: "قال قتادة: علم نبي الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سلطانا نصيرا بكتاب الله وبحدود الله ولفرائض الله ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله، جعله الله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم" انتهى كلامه.

ومنها: أن في الهجرة منقبة وفضيلة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو الذي اختاره الرسول ﷺ للصحبة في الهجرة، وهو الذي سخر أولاده وخادمه وماله ونفسه لإتمامها، فبذل النفس والنفيس دون رسول الله ﷺ، ويكفيه من ذلك قول ربنا ﷻ: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠]، قال القرطبي في تفسيره: "والذي يُقطع به من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة، ويجب أن تؤمن به القلوب والأفئدة: فضل الصديق رضي الله عنه على جميع الصحابة".

ومنها: أن في الهجرة أيضا منقبة وفضيلة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو الذي نام في فراش رسول الله ﷺ تلك الليلة وفداه بنفسه، وهو الذي قام بعده يؤدي الأمانات التي على رسول الله ﷺ، فلا عجب أن يقول بعدها: (عهد إلي رسول الله ﷺ أنه لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق).

ومنها: أن في حديث عائشة ﵂، أن رسول الله ﷺ كان يزور أبا بكر، في هذا دليل على زيارة الكبير لمن هو دونه.

وفيها: أنه ﷺ لما جاءه استأذن، ففيه أن الاستئذان من آداب دخول المترل.

ومنها: أن الإسلام دين وفاء وبر، لا خيانة وغدر، فهو رسول الله ﷺ قد أخرجه أهل مكة وسعوا في قتله، ومع ذلك يوصي عليا وهو في ساعة الفراق والوداع، يوصيه برد الأمانات إلى أهلها من المشركين، فحبس علي نفسه على ذلك، وبقي بعد هجرة رسول الله ﷺ، ليؤدي الحقوق إلى أهلها، ألا فليتق الله من يضيع حقوق العباد، ويخون الأمانات، ويأكل المال الحرام.

ومنها: أن من أخلاق الدعاة الصادقين الزهد فيما عند الناس، ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:١٠٩]، ونرى هذا واضحا في هجرته ﷺ، لما قدم له أبو بكر راحلة أعدها لهذه الرحلة، فقال ﷺ: (بالثمن).

وفي هذا فائدة أخرى وهي: أنه ﷺ أراد أن تكون هجرته من ماله هو، ليكمل له فضل الهجرة بنفسه وماله.

ومنها: أن الله يبطل كيد الكافرين، ولا يصلح عمل المفسدين، فههم يبحثون عن رسول الله ﷺ وصاحبه في كل مكان، يسوقهم الغيظ والعداء للإسلام، والطمع في جائزة قتله ﷺ، وهي مائة من الإبل، فرد الله كيدهم، وأعمى أبصارهم وهم عند باب الغار، كما قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[الأنفال:١٨]، وكما قال ﷻ: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾[التوبة:٤٠].

ومنها: أن في قوله ﷺ لأبي بكر: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[التوبة:٤٠] فائدة، وهي مشروعية تسكين وطمأنة من نزل به أمر يحزنه، ومثل هذا قول خديجة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ، لما نزل عليه الوحي أول مرة وخاف على نفسه قالت: "كلا، والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق".

ومنها: أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾[التوبة:٤٠] يعود على أبي بكر، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: "يعود على أبي بكر، فإن النبي ﷺ كانت عليه السكينة من قبل".

ومنها: أن هذا الحزن الذي أصاب أبا بكر ليس بنقص، كما لم ينقص إبراهيمَ حيث قال الله عنه: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾[الذاريات:٢٨]، ولم ينقص لوطا كما في قوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾[العنكبوت:٣٣].

ومنها: بيان قدرة الله جل جلاله في تغيير الأحوال، ففي تلك الأيام الثلاثة، كان رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، في جوف جبل مظلم موحش، يبحث العدو عنهما ليفتك بهما، وما هي إلا سنوات، وإذا بهذا النبي الكريم يدخل مكة فاتحا مظفرا مؤيدا بعشرة آلاف من المسلمين، وبين أيديه هؤلاء الذين كانوا يبحثون عنه يوم الغار ليقتلوه، فينعم عليهم ويطلقهم ويكسر الأصنام، في أعز الله فيه جنده وهزم الأحزاب وحده. وكذلك الصديق صاحب الغار، صار من بعد خليفة رسول الله ﷺ، تسير جيوشه إلى بلاد فارس والروم، وما من ملك إلا وهو

يهابه لا يدري متى تصل جند الصديق إليه، صدق الله ﷻ حين قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[القصص:٥-٦]. وفي هذا تسلية لأمة الإسلام المغلوبة اليوم، أن ما حل بهم من تسلط الأعداء له أمد قريب ثم ترتفع راية الحق بإذن الله عالية، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[إبراهيم:٢٠]، قال الله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾[آل عمران:١٤٠].

ومن الفوائد: أخذ الحذر والإتيان بالأسباب مع التوكل على الله ﷻ، فرسول الله ﷺ جاء إلى أبي بكر متقنعا -أي: متغطيا- لئلا يعرفه العدو، ثم اختفى في الغار أياما حتى خف الرصد والبحث عنه، وهذا كما قال ربنا ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾[النساء:٧١].

ومنها: أن للمرأة أثرا عظيما في نصرة الدين، ونصرة رسول رب العالمين محمد ﷺ، كما فعلت عائشة وأسماء رضي الله عنهما، ثم شَرُفت الأولى فصارت من أمهات المؤمنين، وأما الثانية فسماها المسلمون ذات النطاقين، تكريما لها وإجلالا.

فاللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام...